جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى

أكذوبة الاضطهاد الدينى فى مصر

أ . د . محمد عمارة

العدد ٦٠

القاهرة
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى

أكذوبة الاضطهاد الدينى فى مصر

أ . د . محمد عمارة

العدد [٦٠]

صفر ١٤٢١هـ - مايو ٢٠٠٠م

يشرف على إصدارها

أ . د / محمود حمدى زقزوق
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أ . د / عبد الصبور مرزوق
نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

على سبيل التقديم

أ . د . عبد الصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أكذوبة الاضطهاد الدينى فى مصر

******

مصر بتاريخها وجغرافيتها وبوزنها البشرى والاقتصادى والعلمى والحضارى وقبل هذا بتاريخها العريق فى التصدى للغزاة عبر العصور منذ المصريين القدماء الذين واجهوا الهكسوس إلى التتار والصليبيين ، وأخيراً دورها البارز والحاسم فى الصراع العربى الإسرائيلى الذى كان وسيبقى مركز ومحور مواجهة الهيمنة الصليبية ومحاولات التوسع الإسرائيلى فى المنطقة .

مصر بهذه المقومات كانت وستبقى بؤرة الصراع ذى البعد الدينى فى المنطقة ليس فقط بين العرب وإسرائيل ولكن بينها وبين كل القوى الصليبية والصهيونية الطامعة فى المنطقة .

***

ولأن البعد الدينى فى الصراع العربى الإسرائيلى له تأثيره الخطير على الجانبين باعتباره الحافز الأكبر فى شحذ الوجدان وحفز الهمم ورفعها إلى تحريك القوى وتجييشها للعمل فقد

تمكنت إسرائيل من استثماره لصالح أهدافها فى المنطقة فى مرحلتين بالغتى الأهمية ، كانت أولاهما :

فيما عرف بالتسويق الإعلامى المكثف لنبوءة أحد أنبيائهم ويدعى « حزقيال » والتى تقول - حسب مصادرهم - إن السيد المسيح عليه السلام لن ينزل إلى الأرض فيملؤها عدلاً بعدما ملئت جوراً إلا بعد وقوع معركة فى الألفية الثالثة تسمّى معركة « أرماجدون » أو « هارما جدون » فى أرضنا العربية بين بحيرة « طبرية » و « البحر الميت » ، وفيها تسيل الدماء جداول ويفنى ما يزيد على المليونين من البشر .

وطبعا - وكما تزعم النبوءة - سيكونون من « الجوابيم » أى منا نحن العرب والمسلمين ولن يكونوا من اليهود .

***

وقد عملت إسرائيل تساندها الصهيونية العالمية على الإفادة من هذه النبوءة فى العالم الغربى الصليبى الذى تسعده بالطبع عودة المسيح فيقف إلى جانب إسرائيل بكل قوته وكل دعمه كما هو واضح مشاهد لا يحتاج إلى دليل .

***

وما أقوله هنا ليس من عندى بل هو بعض ما تحدثت به الصحفية الأمريكية «جريس هلساى» فى كتابها « النبوءة والسياسة » والمترجم إلى العربية بمعرفة جمعية الدعوة الإسلامية فى « ليبيا » .

تقول الكاتبة :

إن إسرائيل نجحت فى الترويج لهذه النبوءة وأقنعت بها كثيرين من أصحاب القرار فى الولايات المتحدة ، بل إنها رتبت رحلات لزيارة أرض المعركة المنتظرة وذلك منذ عام ١٩٣٨م .

***

تلك كانت الخطوة البارعة الأولى على طريق اجتذاب وحشد إسرائيل والصهيونية من ورائها للعالم الصليبى ليكون ظهيراً لها فيما تخطط له من احتواء دموى للمنطقة العربية وفى طليعتها مصر ، وهى خطوة نبوءة حزقيال وعودة المسيح فى الألفية الثالثة كما ذكرنا . وكانت بمثابة مقدمة .

أما الخطوة الثانية فقد تحققت كنتيجة لهذه المقدمة وذلك عندما أعلن المجمع المسكونى (المتحدث باسم الصليبية عامة) أعلن عما أسماه « تبرئة اليهود من دم المسيح عليه السلام » .

وبصرف النظر عن اختلاف معتقدنا كمسلمين يقول كتابنا :

﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾[1] .

فحسب المعتقد عندهم أن اليهود هم قتلة المسيح ، فإذا جاء المجمع المسكونى فى ١٩٦٣م ليعلن براءتهم من دمه تكون من زاوية أخرى إعلاناً عن اليهود والنصارى وقد أصبحوا إخوة ليس

---

(١) النساء : ١٥٧ .

فقط متحابين بل ارتفع من بينهم حاجز العداء بقتل المسيح وأصبحوا على درب واحد يتجه فيه العداء المشترك إلى عدو واحد هو الإسلام .

وهذا ما هو حاصل اليوم ..

فالعالم الغربى الصليبى الذى تفرض منظمته المسماة بالأمم المتحدة يفرض على العالم كله عقوبات قاسية إذا لم توقع دوله على معاهدة حظر التجارب النووية ، ويخضع الجميع ويوقعون إلا إسرائيل .

فهى التى يقبل الغرب الصليبى رفضها للتوقيع مع علمه اليقينى باستمرار إنتاجها للسلاح النووى إضافة إلى المخزون الذى يعرفه العالم كله من الرؤوس النووية .

***

نحن إذن أمام واقع مشهود لا مجال للارتياب فيه ؛ واقع يتحرك بخطى حثيثة للوصول بقوة إسرائيل إلى حيث تكون أقوى من جميع دول المنطقة مجتمعة ؛ بل ولتكون قادرة على هزيمة العرب مجتمعين عند أى صدام .

***

ولأن مصر هى الدولة القوية والمحورية التى أذاقت إسرائيل مرارة الهزيمة فى حرب رمضان الشهيرة فهى بذلك الدولة الأولى المرشحة للثأر منها والمرشحة لتمزيقها من الداخل وإضعاف قواها حتى لا تقوم لها قائمة فتنفرد إسرائيل بالعرب أجمعين دون جهد يذكر .

وهنا نلتقى بالمضمون والرسالة التى يقدمها فى هذا الكتاب « **أكذوبة الاضطهاد الدينى فى مصر** » الأخ والصديق والمفكر الإسلامى البارز والعميق الرؤية الأستاذ الدكتور / محمد عمارة .

وفى هذا الكتاب (الرسالة) نرى مفكراً - كالطبيب البارع يضع أنامله الدقيقة على نبض الوقائع والأحداث ليرصد مساراتها ودرجات قوتها وضعفها ليقدم فى النهاية تشخيصه للداء وتحذيره من مغبة إهمال العلاج وعدم استخدام الدواء .

إن مصر المستهدفة قوية فى التاريخ والجغرافيا والثقل البشرى والحضارى ، ومن ثم لن يجدى معها استخدام القوة إلا إذا جرى التمهيد الكبير له حتى لا تهزم كما هزمت فى حرب رمضان .

***

والحل - عند شياطين الشر من اليهود والصهاينة والغرب الصليبى السائر فى ركابها هو اختراق مصر من الداخل من خلال ما يسمَى بالمراكز البحثية العميلة ومن خلال الدعوة إلى التطبيع مع العدو الصهيونى كما تنادى به جماعة كوبنهاجن ، ثم الاختراق السياسى من خلال محاولة الوقيعة بين المسلمين والأقباط تحت مسمى « **دراسة هموم الأقباط ومشكلاتهم** » .

وكل هذه المحاولات وقعت بالفعل على أرض الواقع وتحدث بها الإعلام المصرى المعاصر .

لكن أخطر ما فيها جميعاً هو محاولة اللعب بورقة ما أصدره الكونجرس الأمريكي فى الولايات المتحدة باسم قانون الاضطهاد الدينى ، والذى أعطت فيه أمريكا لنفسها الحق زوراً وعدواناً وتدخلاً فجاً فى الشئون الداخلية للدول الأخرى - وذلك فى أن تفرض عقوبات على الدول التى تمارس هذا الاضطهاد الدينى .

وأجمعت كل مراصد الفكر السياسى والثقافى على أن هذا القانون (قانون الاضطهادالدينى) موجه فى الدرجة الأولى لمصر ، وذلك بتأثير بعض العناصر العميلة التى هاجرت إلى الولايات المتحدة ، ونسمع بأخبار تظاهراتهم أمام الكونجرس وأمام البيت الأبيض عند زيارة المسئولين لأمريكا صارخين بأنهم يضطهدون فى مصر !! .

***

وهنا ترد هذه الدراسة الممتعة الدقيقة والموثقة على أكذوبة هذا الاضطهاد الدينى المزعوم للأقباط فى مصر لتؤكد أن الإخوة الأقباط فى مصر منذ فجر الإسلام وإلى اليوم يتمتعون بحرية ومساواة ومودة شعبية مع إخوانهم المسلمين لا يكاد يوجد لها نظير فى أى بلد آخر ليس فى المنطقة العربية وحدها بل ليس لها نظير فى تعاملات الغرب الصليبى مع الأقليات المسلمة التى تعيش في ديار الغرب .

***

إن الوعى بمجريات الأحداث ودقة تحليلها والربط بينها واستخلاص النتائج منها ضرورة وطنية وقومية لمعرفة اتجاه الريح وكشف المستور من مخططات القوى المعادية لمصر .

هذا الوعى ضرورة دينية قصوى لأن البعد الدينى فى الصراع العربى الإسرائيلى حقيقة على كل أبناء مصر أن يدركوها أقباطاً ومسلمين لأن التآمر على سفينة الوطن لو نجح - لا قدر الله - فلن ينجو منه أحد ، ولن تفرق الرصاصة الموجهة إلى صدر مصر بين قبطى ومسلم .

ألا فلنكن كلنا على حذر ....،،

أ . د . عبد الصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بأصوات العقلاء نواجه

الأعداء .. والعملاء .. والدهماء

أما أن مصر مستهدفة بمخطط « إمبريالى صهيونى » للتفتيت - ومعها كل بلاد العالم الإسلامى - فتلك حقيقة قد كتبت فيها الوثائق والكتب ، وعقدت حولها الندوات ، وألقيت المحاضرات .. ولقد سبق وجمعت ونشرت العديد من وثائق وكتابات هذا المخطط لتفتيت مصر وبلاد العالم الإسلامى فى كتابى [الإسلام والتعددية] - طبعة دار الرشاد سنة ١٩٩٧م -

وفى كتيب [الأقليات الدينية والقومية] - طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٨م - .

وفى وثائق هذه المخططات - من المستشرق الصهيونى « برنارد لويس » - فى أربعينيات القرن العشرين إلى « بن جوريون » و « شاريت » - فى الخمسينيات - إلى « استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات » إلى محاضرة « أرييل شارون » فى الثمانينيات .. إلى الندوة التى عقدت فى إسرائيل فى التسعينيات .. فى كل هذه الوثائق هناك إجماع على أن تفتيت مصر - بواسطة الطائفية الدينية .. واللعب بورقة أقباط مصر - هو مفتاح تفتيت كل عالم الإسلام ! .

وبنص وثائق هذا المخطط ، فإن الحد الأدنى هو « **تقسيم مصر إلى دولتين على الأقل ، واحدة إسلامية والثانية قبطية** » - هكذا فى مخطط « برنارد لويس » منذ الأربعينيات - أما الحد الأقصى لهذا المخطط - كما رسمته استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات - أى حتى بعد معاهدة « السلام » ؟ ! فهو « **رؤية دولة قبطية - مسيحية فى صعيد مصر ، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية - مصرية ، لا سلطة مركزية ، كما هو الوضع الآن ، هى المفتاح** » ! . مفتاح تفتيت كل عالم الإسلام .. فنص هذه الوثائق يقول بالحرف : « **فمتى تفتتت مصر تفتت الباقون** » !!

وإذا كان البعض يرهبنا بادعاء أننا أسرى لنظرية وذهنية المؤامرة ، فإننا نقول لهم : إن المؤامرة هى تدبير سرى .. أما مخطط التفتيت لمصر فهو معلن على رؤوس الأشهاد .. فنحن بإزاء قرار « إمبريالى صهيونى » معلن ، تصدر لتنفيذه تشريعات ، وترصد له ميزانيات ، وتؤلف لخدمته جمعيات ومراكز أبحاث ، ونرى ثمراته على أرض الواقع فى الممارسة والتطبيق .

وعندما يكون الأمر كذلك ، فإن الاحتكام إلى العقل وأصوات العقلاء يكون هو طوق النجاة من تدابير الأعداء والعملاء والغوغاء .. ونحن نحمد الله على أن أصوات العقل والعقلاء هى الغالبة فى واقعنا المصرى - رغم تركيز الإعلام الغربى والصهيونى على دعاوى العملاء والغوغاء - فعلى حين يبرز الإعلام الغربى دعاوى القلة العميلة من « أقباط المهجر » ومزاعم القلة المرتزقة فى داخل مصر ، لا نراه يشير - ولو مجرد إشارة - إلى أصوات الحكمة والعقل ، التى تنطلق من خبرة التاريخ الواحد لأبناء مصر ، كى تحافظ على « جوهرة وجوهر » الوحدة الوطنية لكل أبناء مصر .. وإذا كان استقصاء واستقراء كتابات هذه الأصوات العاقلة يحتاج إلى فصول ومجلدات ، فإن من المفيد - فى هذا المقام - إيراد النماذج من هذه الكتابات ، التى عبر فيها أصحابها عن حقيقة هذه الوحدة الوطنية .. والاندماج فى الثقافة العربية ، والانصهار فى الحضارة الإسلامية ، مع التنوع فى الاعتقاد الدينى .

* فها هو مكرم عبيد باشا [١٣٠٧ - ١٣٨٠هـ /١٨٨٩م - ١٩٦١م] ابن مصر البار ، والزعيم الوطنى البارز - يقول باسم أقباط مصر - : « نحن مسلمون وطناً ، ونصارى ديناً .. اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك ، وللوطن أنصاراً .. واللهم اجعلنا نحن نصارى لك ، وللوطن مسلمين ».

* وها هو بابا الأقباط الأرثوذكس « شنودة الثالث » يقول عن تطبيق الشريعة الإسلامية فى مصر : « إن الأقباط فى ظل حكم الشريعة الإسلامية ، يكونون أسعد حالا وأكثر أمناً ، ولقد كانوا كذلك فى الماضى ، حينما كان حكم الشريعة هو السائد .. نحن نتوق إلى أن نعيش فى ظل « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .. إن مصر تجلب القوانين من الخارج حتى الآن ، وتطبقها علينا . ونحن ليس عندنا ما فى الإسلام من قوانين مفصلة ، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة ولا نرضى بقوانين الإسلام » ؟!.

* أما « الأنبا موسى » أسقف الشباب بالكنيسة الأرثوذكسية وهو واحد من حكماء رجال الكهنوت فيها ، فإنه هو القائل : « نحن كأقباط ، لا نشعر أننا أقلية ، لأنه ليس بيننا وبين إخواننا المسلمين فرق عرقى « أثنى » ، لأننا مصريون ، وأتجاسر وأقول : كلنا أقباط ، بمعنى أنه يجرى فينا دم واحد من أيام الفراعنة ، ووحدة المسألة العرقية تجعلنا متحدين مهما اختلفنا . هناك

طبعاً التمايز الديني ، لكن يظل الأقوى والأوضح الوحدة العرقية .. ولا نشعر نحن الأقباط بشعور الأقلية البغيض الذى يعانى منه غيرنا . نحن أقلية عددية فقط ، ولكن هذا لا يجعلنا نشعر أن هناك شرخاً بيننا وبين إخواننا المسلمين .. من جهة الهوية العربية ، نحن مصريون عرقاً ، ولكن الثقافة الإسلامية هى السائدة الآن . كانت الثقافة القبطية هى السائدة قبل دخول الإسلام ، وأى قبطى يحمل فى الكثير من حديثه تعبيرات إسلامية ، يتحدث بها ببساطة ودون شعور بأنها دخيلة ، بل هى جزء من مكوناته .. نحن نحيا العربية لأنها هويتنا الثقافية ، ومقتنعون بالطبع بأن فكرة العروبة فكرة سياسية واقتصادية وثقافية ، بالإضافة لوحدة المصير المشترك .. والعلاقة بين الجذور والعروبة علاقة تناصرية . هذه دوائر متداخلة .. وحينما نذكر الأقباط أيام الدولة العثمانية كانوا مع إخوانهم المصريين لهم دور مشترك . وكثير من الأقباط عملوا وشاركوا بشكل واضح فى الحياة السياسية فى عهد محمد على .. والأقباط دورهم بعد ثورة سنة ١٩٥٢م تقلص كجزء من التقلص الشامل فى المشاركة بمصر ، كانت هناك سلبية شاملة .. وأنا أعتقد أن الأقباط جزء هام من نسيج الحياة المصرية .. فهم

أطباء وصيادلة ومهندسون ، وغيرها من المهن ، ونسبتهم فى رجال الأعمال مرتفعة أكثر من نسبتهم العددية فى مصر .. ونحن نرفض المسيحية السياسية ، لأن المسيح قال : « مملكتى ليست بالعالم » .. ولو حدثت المسيحية السياسية تصبح انتكاسة على المسيحية .. ومصر دائماً دولة مسلمة ومتدينة ولكن بدون تطرف . ولو عشنا كمسلمين وأقباط ، وفى إطار الصحوة الدينية المصحوبة بصحوة وطنية فسيكون المستقبل أكثر من مشرق .. نحن فى مصر نسيج واحد ، وسعداء بذلك ، وهذه حماية استراتيجية لنا كأقباط .. وتقسيم مصر فكرة مستحيلة ، وغير مسيحية ، ولو فكرنا فى ذلك معناه أننا نجهز أنفسنا للإبادة .. إنها فكرة غبية .. فكرة صهيونية من أجل تفتيت مصر . وعندما شاهدت ما يحدث فى العراق ، قلت : نجح الصهاينة ، وأصبح العراق ثلاث دول .. فهذه الفكرة الصهيونية ليست قبطية ».

* ومع أصوات العقل والحكمة فى الكنيسة الأرثوذكسية المصرية ، تقف أصوات العقل فى الكنيسة المصرية الكاثوليكية ، فيعلن نائب البطريرك الكاثوليكى الأنبا « حنا قلته » : «أوافق تماماً على أن أكون مصرياً .. مسيحياً، تحت حضارة إسلامية ، بل أنا مسلم ثقافةً مائة فى

المائة .. أنا عضو فى الحضارة الإسلامية كما تعلمتها فى الجامعة المصرية .. تعلمت أن النبى محمد ﷺ ، سمح لمسيحيى اليمن أن يصلُّوا صلاة الفصح فى مسجد المدينة .. فإذا كانت الحضارة الإسلامية بهذه الصورة التى تجعل الدولة الإسلامية تحارب لتحرير الأسير المسيحى والتى تعلى من قيمة الإنسان كخليفة عن الله فى الأرض .. فكلنا مسلمون حضارة وثقافة .. وإنه يشرفنى ، وأفتخر أننى مسيحى عربى ، أعيش فى حضارة إسلامية .. وفى بلد إسلامى .. وأساهم وأبنى مع جميع المواطنين ، هذه الحضارة الرائعة ».

وغير أصوات العقل والحكمة التى أعلنها عقلاء رجالات الكنيسة فى مصر - من الأرثوذكس والكاثوليك ومعهم الإنجيليون - هناك أصوات العقل والحكمة التى أعلنها المثقفون المسيحيون ، الذين لم تخترق عقولهم مزاعم الأعداء فتحولهم إلى عملاء أو غوغاء .

* فالدكتور غالى شكرى يكتب فيقول : « إن الحضارة الإسلامية هى الانتماء الأساسى لأقباط مصر .. وعلى الشباب القبطى أن يدرك جيداً أن هذه الحضارة العربية الإسلامية هى حضارته الأساسية .. إنها الانتماء الأساسى لكافة المواطنين صحيح أن لدينا حضارات عديدة ، من الفرعونية إلى اليوم ، ولكن

الحضارة العربية الإسلامية قد ورثت كل ما سبقها من حضارات ، وأصبحت هى الانتماء الأساسى ، والذى بدونه يصبح المواطن فى ضياع .. إننا ننتمى - كعرب من مصر - إلى الإسلام الحضارى والثقافى وبدون هذا الانتماء نصبح فى ضياع مطلق .. وهذا الانتماء لا يتعارض مطلقاً مع العقيدة الدينية . بالعكس .. لماذا ؟ لأن الإسلام وحّد العرب ، وكان عاملاً توحيدياً للشعوب والقبائل والمذاهب والعقائد » .

* والمفكر اليسارى القبطى « أبو سيف يوسف » - صاحب كتاب [الاقباط والقومية العربية] - يسير على هذا الدرب ، فيعلن : « لقد ساد علاقات الأقباط بالعرب ، والمسلمين بالمسيحيين الاحترام والتعاون ، حتى إن الوعظ فى الكنيسة تحول من اللغة اليونانية (التى ظلت تستعمل كلغة للدولة أيضاً من عهد البطالسة إلى عهد البيزنطيين ، أى حوالى ألف سنة) إلى اللغة العربية .. فالجماعة الإثنية - بمصر - واحدة ، تتكلم اللغة نفسها ، ولها ثقافة عامة مشتركة .. وتشكل فى النهاية كياناً اجتماعياً واحداً .. » .

تلك هى أصوات العقل والحكمة ، التى تمثل جمهور النصارى بمصر .. والتى يجب أن نبرزها ونعلنها وننشرها ، لنواجه بها مخططات الأعداء ، ومزاعم العملاء ، وغرائز الدهماء .

وفى ختام هذه الكلمات .. أدعو قارئها المسلم إلى إعادة قراءتها مرة أخرى .. وأدعو قارئها المسيحى إلى قراءتها ثلاث مرات .. وأدعو وزارة خارجيتنا إلى ترجمتها وتوزيعها على مكاتب الثقافة والإعلام بسفاراتنا .. فبالحكمة والعقل .. وبوجه مصر المشرق يجب أن نواجه مخططات الأعداء .. ومزاعم العملاء .. لترشيد الجهلاء والدهماء ! .

أكذوبة الخط الهمايونى

اكذب .. ثم اكذب .. فإنك لابد واجد من يصدقك !!

تلك كانت فلسفة النازية والفاشية فى الثقافة والإعلام .. ترديد الأكاذيب ، والإلحاح على عقول الناس بتكرار هذه الأكاذيب ، حتى يصدقها الناس ، بل وتصبح عندهم من البدهيات والمسلمات ! ..

بل إن فى مأثورات الفكاهات العربية ما يوحى بأن ترديد الأكاذيب يؤدى إلى أن يصدق حتى الكذبة ما يرددون من أكاذيب ! .. فشخصية « أشعب » - فى المأثور الفكاهى العربى - كانت تكذب على الأطفال الذين يتحلقون حولها ،

فتقول لهم - كى ينصرفوا بعيداً عنها - : إن هنالك وليمة دسمة عند « فلان » الكريم ، وإنهم جميعاً مدعوون إليها .. فإذا ما صدقه الأطفال وانطلقوا نحو منزل « فلان » الكريم .. أخذ أشعب يجرى خلفهم إلى ذات المكان ، مصدقاً أكذوبته ، وحتى لا يضيع عليه الاستمتاع بالوليمة التى اخترع خبرها !! .

ولقد كانت تتوارد إلى خاطرى هذه المعانى كلما سمعت أو قرأت - صور الهجوم على مصر ، والتهجم على حكومتها - أن مصر لازالت - بعد قرن ونصف من زوال الدولة العثمانية - تطبق على مواطنيها الأقباط قانوناً عثمانياً - صدر سنة ١٨٥٦م - اسمه « الخط الهمايونى » ، وأن بناء الكنائس فى مصر لا يزال إلى الآن محكوماً ببنود هذا « الخط الهمايونى » ، وكان عجبى يتزايد ، ليس فقط من الكذب والكاذبين ، وإنما من حكومتنا التى تنفق بسخاء على طوابير من « المثقفين » ، كيف لا تفكر هذه الحكومة فى تحقيق هذا الأمر ، لنفى ودحض هذه الأكذوبة ، التى غدت سبة فى جبينها ، يرددها صباح مساء العملاء من أقباط المهجر ، والأعداء فى دوائر الكونجرس الأمريكى ، واللوبى الصهيونى فى أمريكا ، وكل المنتفعين بالتمويل الأجنبى فى مصر ، تحت لافتات مراكز « الأبحاث » و« الدراسات » فى « هموم ..ومشاكل ..ومطالب الأقباط » ؟ !.

وإذا كان الهدف هو تجلية الحقيقة ، لنفى ودفن الأكذوبة ، فلنبدأ بتعريف القارئ بمعنى هذا « الخط الهمايونى » :

* إن معنى كلمة الخط هو القانون .. ومعنى الهمايونى هو الشريف .. فبالمصطلحات العثمانية « الخط الهمايونى » هو القانون السلطانى الشريف والمعظم .

* وهذا الخط الهمايونى ، هو واحد من القوانين الإصلاحية - التى سميت بالإصلاحات الخيرية - تلك التى أصدرها السلطان عبد المجيد خان (١٢٥٥-١٢٧٧هـ / ١٨٣٩-١٨٦١م) فى ١١ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٢هـ - ١٨ فبراير سنة ١٨٥٦م . لإنصاف الأقليات غير الإسلامية من رعايا الدولة العثمانية ، وإزالة مظاهر التمييز بينهم وبين المسلمين ، وتقرير المساواة بين كل رعايا الدولة ، بصرف النظر عن العقيدة الدينية .. ولقد كان الهدف من إصدار هذا القانون « التقدمى » و « الإصلاحى » هو سد ثغرات التدخل الأجنبى الاستعمارى فى شئون الدولة العثمانية بدعوى وحجة حماية الأقليات الدينية ، ذات الروابط المذهبية مع الدول الاستعمارية فى ذلك التاريخ .. فلقد كانت القيصرية الروسية - وهى أرثوذكسية - تتدخل فى الشئون العثمانية بدعوى « حماية الروم الأرثوذكس » من الرعايا العثمانيين .. وكذلك كانت تفعل فرنسا مع « الروم الكاثوليك » وإنجلترا مع الإنجيليين ..

أى أن هذا الخط الهمايونى ، قد صدر ليحقق الإنصاف والإصلاح ، سداً لثغرات التدخل الاستعمارى فى شئون الدولة ، تلك الثغرات التى كانت متمثلة فى الأقليات ذات الارتباطات والعلاقات المذهبية مع القوى الاستعمارية الكبرى فى ذلك التاريخ - القيصرية الروسية .. وفرنسا .. وإنجلترا - .

* ولقد نص هذا الخط الهمايونى على ضرورة رفع المظالم المالية عن النصارى ، سواء تلك التى كانت لحساب جهاز الدولة ، أو لحساب كبار رجال الدين فى طوائف هؤلاء النصارى .. وبلغة ذلك العصر ، جاء فى هذا القانون :

« ويصير منع كافة الجوائز والعوائد الجارى إعطاؤها للرهبان مهما كانت صورتها ، وتخصص إيرادات معينة بدلها للبطاركة ورؤساء الطوائف ، ويصير تعيين معاشات بوجه العدالة بموجب ما يتقرر وبحسب أهمية رتب ومناصب سائر الرهبان ، ولا يحصل السكوت على أموال الرهبان المسيحيين المنقولة والغير منقولة ، بل يصير إحالة حسن المحافظة عليها على مجلس مركب من أعضاء ينتخبهم رهبان وعوام كل طائفة ، لإدارة مصالح طوائف المسيحيين والتبعية الغير مسلمة .. ».

ففى هذا النص تقرر رفع المظالم عن كاهل النصارى ، وتنظيم الرواتب والمعاشات للرهبان ورجال الدين ، وتكوين مجالس - بالانتخاب العام - لإدارة شئون هذه الملل والطوائف غير المسلمة .. وذلك للمرة الأولى فى تاريخ هذه الطوائف .

* لإزالة عبارات التمييز والتحقير التى كانت تستخدم - بالمحررات والمكاتبات الرسمية - ضد النصارى ، كما فى نص الخط الهمايونى :

« تمحى وتزال إلى الأبد من المحررات الرسمية الديوانية كافة التعبيرات والألفاظ المتضمنة تحقير جنس لجنس آخر فى اللسان أو الجنسية أو المذهب من أفراد تبعة سلطنتنا السنُية ، ويمنع قانوناً استعمال كل وصف وتعريف يمسُ الشرف أو يستوجب العار بين أفراد الناس ورجال الحكومة ».

* ولتقرير الحرية الدينية ، فى الاعتقاد وأداء الشعائر ، نص الخط الهمايونى :

« وبما أن عوائد كل دين ومذهب موجود بممالكنا المحروسة جارية بالحرية ، فلا يمنع أى شخص من تبعتنا الملوكية من إجراء رسوم الدين المتمسك به ، ولا يؤذى بالنسبة لتمسكه به ، ولا يجبر على تبديل دينه ومذهبه .. ».

* ولتقرير المساواة بين جميع الرعية ، من كل الديانات والمذاهب ، فى تولى الوظائف العامة بالدولة ، والمدارس المدنية والعسكرية ، نص الخط الهمايونى :

« ولكون انتخاب وتعيين خدمة ومأمورى سلطنتنا السنُية منوطاً باستنساب إرادتنا الملوكية، فيصير قبول تبعة دولتنا العلية من أى ملة كانت فى خدماتها ومأمورياتها ، بحيث يكون استخدامهم فى المأموريات بالتطبيق للنظامات المرعية الإجراء فى حق العموم بحسب استعدادهم وأهليتهم ، وإذا

قاموا بإيفاء الشروط المقررة بالنظامات الملوكية المختصة بالمكاتب التابعة لسلطنتنا السنية ، بالنسبة للسن والامتحانات ، يصير قبولهم فى مدارسنا الملكية والعسكرية بلا فرق ولا تمييز بينهم وبين المسلمين .. ».

* وفوق كل ذلك ، فتح هذا الخط الهمايونى الباب لهذه الطوائف والملل كى تنشىء المدارس الخاصة بها ، على اختلاف تخصصاتها ، فجاء فى نصه :

« وعدا ذلك ، فإن كل طائفة مأذونة بإعداد مكاتب أهلية للمعارف والحرف والصنائع . إنما طرق التدريس وانتخاب المعلمين يكون تحت ملاحظة مجلس المعارف المختلط المعينة أعضاؤه من طرفنا الملوكى .. ».

* كذلك نص الخط الهمايونى على كامل المساواة بين المسلمين وغيرهم فى الخراج ، والخدمة العسكرية ، وسائر الحقوق .. فجاء فيه :

« وكما أن مساواة الخراج تستوجب مساواة سائر التكاليف ، والمساواة فى الحقوق تستدعى المساواة فى الوظائف ، فالمسيحيون وسائر التبعة الغير مسلمة يسحبون نمرة قرعة مثل المسلمين ، ويجبرون على الانقياد للقرار الصادر أخيراً ، وتجرى عليهم أحكام المعافاة من الخدمة العسكرية بتقديم البدل الشخصى أو النقدى .. ».

* ولتقرير المساواة بين غير المسلمين والمسلمين فى التكاليف المالية والخراج ، وإزالة أى تفرقة أو تمييز بين الرعية فى ذلك ، نص الخط الهمايونى على :

« ولكون التكاليف والخراج الموزع على كافة تبعة سلطنتنا السنيَّة لا ينظر فيه إلى أجناسهم ومذاهبهم ، بل جارى تحصيله بصفة واحدة ، فيلزم المذاكرة فى التدابير السريعة لإصلاح سوء الاستعمال الواقع فى أخذ واستيفاء هذه التكاليف » .

* ولتعديل وتصديق واعتماد شهادة الشهود غير المسلمين فى الدعاوى التى تتعدد ديانات ومذاهب أطرافها ، نص الخط الهمايونى على :

« وتصدق شهادة الشهود بمجرد تحليفهم اليمين حسب قواعدهم ومذاهبهم » .

* أما بناء الكنائس الجديدة ، فلقد أباحه الخط الهمايونى ، بعد تقديم طلب البناء ، والتأكد من ملكية الأرض التى سيتم عليها البناء ، وذلك دون رسوم أو تكاليف فجاء فيه :

« وأما الأبنية المقتضى إنشاؤها مجدداً ، يلزم أن تعرض البطاركة والمطارنة لبابنا العالى باسترحام الرخصة اللازمة عنها ، فإن لم يوجد لدى دولتنا العلية موانع فى الامتلاك تصدر بها رخصتنا السنية وكافة المعاملات التى تحصل فيما يماثل كل هذه

الأشـغـال تكون مـجـاناً من قـبل دولتنا العليـة فى التأمين على إجراء عوائد كل مذهب بكمال الحرية ، مهما كان مقدار العدد التابع لهذا المذهب .. »[1].

***

تلك هى أبرز المواد والأفكار والقضايا التى تناولها الخط الهمايونى بالإصلاح والتطوير والإنصاف والتنظيم .. والتى قرر بها كامل المساواة بين رعية الدولة العثمانية على اختلاف الديانات والمذاهب .. وهى إصلاحات - وإن صدرت قبل قرن ونصف - إلا أنها لازالت تمثل مطالب ومـقـاصـد ، بل وأمنيات ، للأقليات المسلمة فى كثير من بلاد النور والتنوير والديمقراطية الغربية فى القرن الواحد والعشرين !!.

لكن الكذبة لا يكتفون بتشويه التاريخ ، اعتماداً على الجهل وسوء النية .. وإنما ذهبوا إلى حد الزعم بأن مصر لا تزال حتى الآن تطبق على أقباطها هذا الخط الهمايونى ، رغم زوال الدولة العثمانية وكل تقنيناتها منذ ثلاثة أرباع القرن . بينمـا الحـقـيـقـة الصـارخـة والمذهلة تقـول : إن هذا الخط الهمايونى لم يكن فى يوم من الأيام مطبقاً فى مصر، حـتى عندمـا كـانت مـصـر ولاية من ولايات الدولة العثمانية !!..

---

(١) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية ، الطبعة الأولى ص ٢٥٦-٢٦٠.

*فمصر منذ قيام دولة محمد على باشا (١١٨٤-١٢٦٥هـ / ١٧٧٠م -١٨٤٩م) - أى قبل نصف قرن من صدور الخط الهمايونى - قد حققت استقلالها فى التشريع والتقنين عن الدولة العثمانية - أى الاستقلال فى « العدل والحقانية » ، بلغة ذلك التاريخ .. وهى قد حققت هذا الاستقلال فى الفقه والتشريع والتقنين لكل أبنائها ، مسلمين كانوا أو مسيحيين .. ولم يكن القانون العثمانى حاكماً فى مصر، لا على المسيحيين ولا على المسلمين . حدث هذا بحكم الأمر الواقع .. فى الاستقلال الذى حققته دولة وسلطة محمد على باشا .. ثم جرى تقنين هذا الاستقلال التشريعى فى اتفاق كوتاهية سنة ١٨٣٣م .

*وحتى عندما جاءت معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م فانتقصت من سيادة مصر واستقلالها ، فإنها قد وقفت بذلك الانتقاص عند وضع القيود على قوة مصر العسكرية ، وعند تقرير الجزية التى تدفعها مصر للدولة العثمانية .. وظلت سيادة مصر واستقلاليتها فى المعاملات المالية الخارجية .. وفى التقنين والتشريع ، لا حباً من الدول الأوروبية - التى عقدت معاهدة لندن - فى استقلال مصر بتلك الميادين ، وإنما حرصاً على فتح الباب أمام مصر

لتستدين من أوروبا .. ولتأخذ بالقوانين الأوروبية ، دونما عائق عثمانى فى هذه الميادين !

ولذلك ، نص الفرمان العثمانى الصادر لمحمد على باشا فى أول يونية سنة ١٨٤١م على استقلال مصر فى التشريع « ملاحظة للظروف المحلية المختصة بالعدل والحقانية .. » ، وجاء فرمان ٨ يونيه سنة ١٨٦٧م - الصادر للخديوى إسماعيل (١٢٤٥-١٣١٢هـ / ١٨٣٠-١٨٩٥م) - لينص على أن الذى يسرى بمصر من القوانين العثمانية هى « المبادىء العمومية ، المنشورة فى تنظيمات « كلخانة » ، أعنى تأمين الأرواح والأموال والشرف!!..وبعبارة المؤرخ عبد الرحمن الرافعى(١٣٠٧-١٣٨٥هـ/١٨٨٩-١٩٦٦م) : « فإن حكومة مصر فى عهد محمد على وخلفائه لم تنازعها تركيا يوماً ما فى حقها المطلق فى التشريع والتقنين بكل أنواعه ، ولم تتدخل البتة فى هذا الصدد إطلاقاً .. »[1].

* ويشهد على هذه الحقيقة .. حقيقة استقلال مصر فى العدل والحقانية والتشريع والتقنين ..

وأن القانون العثمانى - ومنه الخط الهمايونى - لم يكن مطبقاً فى مصر فى يوم من الأيام ، منذ قيام دولة محمد على باشا .. وأن الإصلاحات التى صدر

(١) الرافعى : عصر محمد على - ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٥١م .

لأجلها الخط الهمايونى سنة ١٨٥٦م ، قد سبقت إلى تقريرها مصر فى عهد الخديوى سعيد (١٢٣٧-١٢٧٩هـ / ١٨٢٢-١٨٦٣م) بما سنته من إلغاء للجزية ، ومساواة النصارى بالمسلمين فى قواعد الجندية سنة ١٨٥٥م .

* بل إن القانون العثمانى ، الخاص بالمسلمين لم يكن هو الآخر مطبقاً فى مصر - بسبب استقلالها فى التشريع والتقنين - حتى أن الدولة العثمانية عندما قننت فقه المذهب الحنفى سنة ١٨٦٩م واعتمدت « مجلة الأحكام الدولية » فى القضاء العثمانى ، لم تطبق تشريعات وتقنينات هذه « المجلة » فى مصر أيضاً .

* وفوق كل ذلك ، فإن الخط الهمايونى قد صدر سنة ١٨٥٦م لسد ثغرات التدخل الاستعمارى فى الشئون الداخلية للدولة العثمانية ، من خلال اللعب الاستعمارى « بأوراق الأقليات » .. على حين لم يكن أقباط مصر يعاملون كأقلية .. وإنما كانوا دائماً وأبداً جزءاً أصيلاً من الشعب المصرى ، فلم يعاملوا كأقلية ، ولم ينطبق عليهم « قانون الملل » العثمانى فى يوم من الأيام .. لا الخط الهمايونى من هذا القانون ولا غير الخط الهمايونى .

* ويشهد - أيضاً - على حقيقة استقلال مصر فى التشريع والتقنين ، سواء لمسلميها أو لمسيحييها .. أنها قد استقلت بالتقنين للأقليات الدينية من أبنائها .. فبعد قانون سنة ١٨٥٥م

- الذى ألغى الجزية ، وساوى بين كل المصريين فى التجنيد .. قننت مصر لائحة المحاكم الشرعية الإسلامية - سنة ١٨٨٢م .. وأتبعت ذلك بتقنين لائحة الأقباط الأرثوذكس - « دكريتو - ٧رجب سنة ١٣٠٠هـ - ١٤ مايو سنة ١٨٨٣م - وهو «الدكريتو» الذى عدل بالقانون رقم ٣ لسنة ١٩١٢م .. ثم بالقانون رقم ١٩ لسنة ١٩٢٧م .. ولقد قننت مصر أحوال النصارى الإنجيليين بدكريتو - لائحة - أول مارس ١٩٠٢م .. وأحوال الأرمن الكاثوليك بلائحة - دكريتو - ١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٥م .. فكان التشريع والتقنين مصرياً خالصاً ، لكل أبناء مصر مسلمين كانوا أو مسيحيين .. ولقد ظلت هذه التشريعات المصرية الصميمة هى التى يشار إليها فى مقدمات الموافقات والتصريحات ببناء الكنائس فى مصر .. وليس هناك تصريح واحد ببناء كنيسة مصرية يشار فى مقدمته إلى الخط الهمايونى ، الذى جعله الكذبة والعملاء - فى الخارج والداخل - « جرسة .. وسبة » « يجرسون » به مصر ، حكومة وشعباً .. متبعين فى ذلك فلسفة النازية والفاشية فى الثقافة والإعلام : اكذب .. ثم اكذب ، فإنك لابد واجد من يصدقك ! ..

على حين ، وقفت الحكومة - ومثقفوها المرتزقة .. وترزية قوانينها - فى غفلة بلهاء عن كشف حقيقة الخط الهمايونى .. وكيف أنه لم يكن فى يوم من الأيام قانوناً لنصارى مصر ، لا فى العهد العثمانى ، ولا بعد سقوط دولة آل عثمان ! .

أكذوبة اضطهاد الأقباط

هل هى مجرد صدفة أن جميع الذين احترفوا تهويل الحديث عن مظالم الأقباط وهموم الأقباط واضطهاد الأقباط فى مصر هم من غلاة أعداء الهوية الإسلامية لمصر ، وإسلامية القانون المصرى ، وتطبيق الشريعة الإسلامية فى مصر ؟ ! .

وهل هى مجرد صدفة أن كل « المراكز البحثية » التى احترفت الحديث عن « هموم الأقباط » ممولة من البلاد والجهات التى أعلنت وتعلن أن الإسلام هو العدو الذى حل محل امبراطورية الشر الشيوعية ؟ ! .

وهل هى مجرد مصادفة أن تأتى الدعوة إلى الانقلاب على المقومات الإسلامية للنظام الاجتماعى فى مصر - كما صاغها الدستور المصرى - من رئيس أكبر « المراكز البحثية » التى احترفت تأليف الكتب وعقد الندوات والمؤتمرات وإصدار النشرات عن « هموم الأقباط .. واضطهاد الأقباط » ؟ ! بل وأن تتم هذه الدعوة من على منبر الكاتدرائية الأرثوذكسية - فى العباسية - فى قاعة « الأنبا صمويل » - مع شديد الأسف - وذلك عندما وقف الدكتور / سعد إبراهيم ليدعو إلى تغيير هوية مصر ، والانقلاب على مقوماتها التى نص عليها الدستور، وذلك بإلغاء المادة الثانية من الدستور المصرى التى تنص على أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع ؟ ! .

إن الدكتور / سعد إبراهيم - الذى يحتمى بالجنسية الأمريكية .. والزوجة الأمريكية ، العاملة فى الأجهزة الأمريكية ، والذى يُدرس فى الجامعة الأمريكية - التى تأسست فى الأصل مدرسة لتنصير المسلمين وتحويل الأرثوذكس إلى البروتستانتية - يمارس الدعوة إلى إلغاء مرجعية الشريعة الإسلامية والهوية الإسلامية لمصر من خلال « مركز بحثى » أطلق عليه اسم « ابن خلدون » - قاضى الشريعة الإسلامية ، وفقيه المذهب المالكى ؟؟ !! .. وهو يمارس هذه الدعوة الانقلابية بتمويل سخى ودائم - معلن - من الدوائر التى اتخذت من

الإسلام عدواً ؟ ! .. وإذا كان هذا غريباً وشاذاً من مواطن مصرى يحمل الجنسية المصرية ، قبل الجنسية الأمريكية - فإن الأكثرغرابة والأشد شذوذاً أن تفتح قاعات الكاتدرائية الأرثوذكسية ومنابرها لدعوة الانقضاض والانقلاب على الهوية الإسلامية لمصر .

فى الوقت الذى نعرف فيه أن الرأى « المعلن » للكنيسة الوطنية هو مع الشريعة الإسلامية وليس ضدها .. ومع إسلامية الهوية الحضارية والثقافية لمصر وليس مع تغييرها .. فالبابا شنودة هو القائل : « إن الأقباط ، فى ظل حكم الشريعة الإسلامية ، يكونون أحسن حالاً وأكثر أمناً ، ولقد كانوا فى الماضى ، حينما كان حكم الشريعة هو السائد .. نحن نتوق إلى أن نعيش فى ظل (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) »[1].

« والأنبا موسى » - أسقف الشباب - هو المدافع عن الهوية الإسلامية والثقافة الإسلامية لكل أبناء مصر - أقباطاً ومسلمين - وهو القائل : « نحن مصريون عرقاً ، ولكن الثقافة الإسلامية هى السائدة الآن .. وأى قبطى يحمل فى الكثير من حديثه تعبيرات إسلامية ، يتحدث بها ببساطة ودون شعور بأنها دخيلة ، بل هى

---

(١) صحيفة الأهرام - عدد ٦ مارس سنة ١٩٨٥م .

جزء من مكوناته .. فمصر دائماً دولة مسلمة ومتدينة »[1].

فكيف تسللت الدعوة للانقلاب على المقومات الإسلامية للنظام المصرى والمجتمع المصرى إلى قاعات الكاتدرائية ، وانطلقت من فوق منابرها - مساء الجمعة ٢٠٠٠/٢/٤م - ؟ ! .

إن عداء الغرب للإسلام وشريعته ونهضة أمته ليس « نظرية مؤامرة » - فالمؤامرة « تدبير سرى » - وإنما هو قرار معلن ، فى مراكز الدراسات الاستراتيجية ، ودوائر صنع القرار .. وفيه كتبت ونشرت عشرات الكتب والدراسات .. ولذلك كان التمويل الأجنبى لعشرات المراكز « البحثية » ، التى يقوم عليها عشرات من غلاة العلمانيين ، الذين اتخذوا من قضية الأقليات أوراقاً يضخمونها ، لتتحول إلى « عقبات » فى طريق اليقظة الإسلامية والاتجاه بسفينة النهضة نحو الإسلام !! .. فكل اللاعبين بأوراق الأقليات - بما فى ذلك الأقليات القومية والمذهبية الإسلامية .. من الأكراد وشيعة العراق وأمازيغ المغرب - إنما يوظفون هذه الأوراق لتحول بين حكوماتنا ومجتمعاتنا وبين النهوض بالإسلام .

ولأن « القضية » مصطنعة ومفتعلة .. ولأن كثرة الكذب تحول الأكاذيب إلى بدهيات ومسلمات ، كان علينا أن نناقش لبّ الدعوى وجوهر الادعاء .

---

(١) د. سعد إبراهيم (الملل والنحل والأعراق) ص ٥٢٩-٥٢٤ - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.

هل أقباط مصر مضطهدون ؟

ولأن الهدف هو تصوير الهوية الإسلامية للدولة والمجتمع كعقبة أمام الوحدة الوطنية ، ومن ثم تقديم العلمانية الغربية باعتبارها الحل الأمثل لبناء هذه الوحدة الوطنية .. كان لابد من تضخيم ما سمى « بهموم الأقباط ومظالم الأقليات » حتى لقد ذهب هؤلاء الكَذَبَة على درب هذا الكذب إلى الحد الذى زيفوا فيه الأرقام والحقائق والإحصاءات !! .

* فالدكتور سعد إبراهيم - قبل أن يكلف « بمقاولة » الأقليات- أصدر سنة ١٩٨٨م كتابه (**المجتمع والدولة فى الوطن العربى**) فجعل فيه تعداد المسيحيين العرب ٧٫٨٠٠٫٠٠٠ نسمة فلما أقام « مركز ابن خلدون » أصدر - بالتمويل الأجنبى - مجلداً ضخماً سماه (**الملل والنحل والأعراق : هموم الأقليات فى الوطن العربى**) سنة ١٩٩٠م - أى بعد عامين اثنين من كتابه الأول - فإذا به - يقفز بتعداد المسيحيين العرب من سبعة ملايين وثمانمائة ألف إلى اثنى عشر مليوناً ؟ ! .. ولأن الهدف هو اللعب بأوراق كل الأقليات - حتى المسلمة منها - فلقد قفز « عالم الاجتماع بتعداد الأقليات المسلمة غير العربية - أيضاً - من ٢٠٫٠٥٠٫٠٠٠ نسمة إلى ٢٩٫٧٢٥٫٠٠٠ نسمة ؟ ! .. الأمر الذى يجعلنا نتساءل : هل لو كانت نساء هذه الأقليات جميعاً حبالى ، وولدن توائم كن يحققن هذه القفزات الجزافية التى صنعها « ضمير » عالم الاجتماع ؟ ! ..

* وعلى هذا الدرب - الكذب فى الأرقام والإحصاءات - سار سعد إبراهيم وغيره حتى رأيناهم يبلغون بعدد أقباط مصر إلى سبعة ملايين .. وأحياناً عشرة .. وأحياناً خمسة عشر مليوناً !! يحدث ذلك فى بلد يقوم بإحصاء رسمى ودقيق ومحايد لعدد السكان ودياناتهم وطبقاتهم وتخصصاتهم كل عشر سنوات .. ويحدث ذلك فى مصر منذ الاستعمار الإنجليزى حتى الآن .. وهذه الإحصاءات تعلن الثبات التقريبى لنسبة الأقباط إلى المسلمين ، منذ أن كان القائم على التعداد الإنجليز والموظفون الأقباط وحتى آخر تعداد .. ففيما بين ١٩٠٧م و ١٩٣٧م كانت نسبة النصارى - كل النصارى - إلى المسلمين أعلى قليلاً من ٨٪ .. ثم هبطت فى تعداد ١٩٤٧م إلى ٩ر٧٪ .. ثم أخذت - بسبب ارتفاع أعداد المهاجرين الأقباط - فى الهبوط ، فكانت فى سنة ١٩٦٠م ٣ر٧٪ .. وفى إحصاء ١٩٨٦م ٩ر٥٪ .. أى أن تعداد الأقباط هو - فى هذا الإحصاء - أقل من ثلاثة ملايين .. وليس عشرة ملايين ، أو خمسة عشر مليوناً ؟ !.

والذى يقر هذه الحقيقة .. ويؤكد على صدق الإحصاءات الرسمية ، ليس كاتباً إسلامياً ، وليس مرجعاً كتبه مسلم .. وإنما هو مصدر فى المعلومات والإحصاءات كتبه اثنان من النصارى .. أحدهما فرنسى - هو فيليب فارج - رئيس المركز الفرنسى بمصر - والثانى لبنانى - هو رفيق البستانى - .. ففى هذا المصدر (أطلس معلومات العالم العربى : المجتمع والجغرافيا السياسية) - والذى نشرته دار نشر قومية -

وليست إسلامية - هى « دار المستقبل العربى » سنة ١٩٩٤م - فى هذا المصدر الحجة .. نقرأ تحت عنوان « أقباط مصر » ما يلى :

« كم عددهم ؟ كم عدد أكبر طائفة مسيحية فى الشرق ؟ هل يبلغ أكثر قليلاً من ثلاثة ملايين ، كما يمكن استنتاجه من آخر تعداد للسكان (١٩٨٦م) ؟ أم هل يرتفع عددهم إلى ٥.أو ٦ أو حتى ٧ ملايين ، كما تؤكد بعض الهيئات القبطية ؟

إن التفاوت فى التقدير أمر غريب فى بلد تتوفر فيه الإحصاءات بغزارة . فمصر على عكس بعض بلدان المنطقة ، لا تبخل بالمعلومات عن سكانها ، إذ تجرى التعداد بصفة منتظمة منذ سنة ١٨٨٢م ، وجاء بحصيلة لا بأس بها من المعلومات ، وهى حصيلة قابلة للتحقق منها ، وللمطابقة بينها وبين غيرها.

ومع هذا فإن الجدل حول هذا الموضوع مازال قائماً، فالطائفة القبطية تقول إن تقرير عدد الأقباط بنسبة ٦٪ من عدد السكان الكلي ، كما تشير إلى ذلك الإحصاءات الرسمية ، فيه تقليل من عددهم ، ولكننا نلاحظ أن التعدادات التى أجريت فى عهد الاستعمار، تؤكد هذه الأرقام الرسمية ، ونلاحظ تناقصاً طفيفاً فى نسبة عدد الأقباط ، كما يتبين من التعدادات المتتالية :

إذ كانت نسبة الأقباط أعلى قليلاً من ٨٪ من العدد الكلى لسكان مصر ، فيما بين عامى ١٩٠٧م ، ١٩٣٧م، ثم هبطت النسبة إلى ٩ر٧٪ فى تعداد ١٩٤٧م ، وإلى ٣ر٧٪ فى سنة ١٩٦٠م ، ٩ر٥٪ فى سنة ١٩٨٦م ، وليس هناك أى استثناء فى هذا المنحنى الهابط بانتظام ، مما يوحى بأنه ليس هناك افتعال فى هذه الظاهرة .

فهل تركيز الأقباط فى أمكنة بعينها ، والتضامن القوى بينهم بسبب التوترات الدينية ، التى تظهر من وقت إلى آخر ، هل كل ذلك يوهم الأقباط بأن عددهم أكبر من الأرقام الرسمية ؟

والواقع أن الأقباط يتركزون فى معظمهم فى منطقتين : القاهرة والصعيد حول المنيا وأسيوط ، حيث يمثلون ٢٠٪ من السكان .

الحقيقة أن أقباط مصر ، شأنهم فى ذلك شأن مسيحيى الشرق الآخرين ، سبقوا المسلمين إلى تخفيض عدد المواليد ، ولذلك قد هبطت نسبة عدد الأقباط بالنسبة للعدد الكلى للسكان من ٣ر٧٪ فى سنة ١٩٦٠م إلى ٩ر٥٪ فى عام ١٩٨٦م .

تلك هى الحقيقة كما أعلنها العلماء المحايدون .. المتدينون بالنصرانية .. من غير المصريين !!

لكن الهدف - من الكذب الفاجر - هو « تضخيم الورقة » ، التى تتحول - بالكذب أيضاً - إلى عقبة أمام الهوية الإسلامية للدولة والمجتمع والدستور والقانون !! .

* **وبعد تضخيم التعداد .. يأتى تضخيم « المظالم والهموم »** .

وإذا كانت الأرقام لا تكذب .. وإذا كانت العقلية الغربية - والعقلية العلمية عموماً - إنما تحترم لغة الأرقام .. فعلينا أن نواجه سيل الأكاذيب التى تتحدث عن « مظالم الأقباط وهمومهم » بحقائق الأرقام والإحصاءات .. وهى حقائق تصرخ - مع شيخنا محمد الغزالى عليه رحمة الله - فتقول : « **إن أقباط مصر هم أسعد أقلية فى العالم** » ! ..

لقد درس المستشرق الألمانى الحجة « آدم متز » (١٨٦٩-١٩١٧م) تاريخ المجتمعات الإسلامية ، ورأى كيف كانت الدولة وأجهزتها الحساسة فى أيدى الأقليات النصرانية ، فكتب يقول : « **لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام** » ! [(١)] .

وإذا كان الاقتصاد هو عصب الحياة .. وإذا كانت المهن الممتازة هى القابضة على الامتيازات الحقيقية فى المجتمع فإن الأرقام - التى لا تكذب ولا تجامل - تعلن أن الأقلية القبطية - التى

---

(١) (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) جـ١ ص ١٠٥ - ترجمة : د. محمد عبد الهادى أبو ريدة - طبعة بيروت سنة ١٩٦٣م .

لا تتعدى الثلاثة ملايين - هى الحاكمة الفعلية فى المجتمع المصرى - الذى يزيد تعداده عن الستين مليوناً !! فهم يملكون ويمثلون :

- ٢٢,٥٪ من الشركات التى تأسست بين عامى ١٩٧٤م و١٩٩٥م .
- و ٢٠٪ من شركات المقاولات فى مصر .
- و ٥٠٪ من المكاتب الاستشارية .
- و ٦٠٪ من الصيدليات .
- و ٤٥٪ من العيادات الطبية الخاصة .
- و ٣٥٪ من عضوية غرفة التجارة الأمريكية .. وغرفة التجارة الألمانية .
- و ٦٠٪ من عضوية غرفة التجارة الفرنسية (منتدى رجال الأعمال المصريين والفرنسيين) .
- و ٢٠٪ من رجال الأعمال المصريين .
- وأكثر من ٢٠٪ من المستثمرين فى مدينتى السادات والعاشر من رمضان .
- و ٢٥٪ من المهن الممتازة والمتميزة - الصيادلة والأطباء والمهندسين والمحامين .. والبيطريين .

أى أن ٥,٩٪ من سكان مصر - أقباط - يملكون ما يتراوح بين ٣٥٪ و ٤٠٪ من ثروة مصر وامتيازاتها ؟ ! [1] .

---

(١) تقرير : « روزاليوسف » و « اتحاد المهن الطبية » و « اتحاد المقاولين » و « مجلة المختار الإسلامى » - عدد ١٥ ربيع الأول سنة ١٤١٩هـ - يوليو سنة ١٩٩٨م .

بل إن أى باحث اجتماعى - فضلاً عن « عالم » اجتماع مثل د . سعد إبراهيم - يدرك - بالأرقام كيف أن أقباط مصر لا يعانون من الهموم الحقيقية والثقيلة للشعب المصرى كالأمية .. والبطالة .. وسكنى المقابر والعشوائيات .. وأزمة الزواج لقلة ذات اليد ، وأزمة الإسكان .. الخ .. الخ .. فأين هى « هموم الأقباط » ؟ ! .. ومن هم الذين تطحنهم الهموم ؟ ! ..

صحيح .. أن منصفاً لا ينكر « شطارة » الأقباط فى الأنشطة الدنيوية ، والاقتصادية منها على وجه الخصوص .. لكن بصيراً وعليماً بمجريات الأمور لا ينكر أثر المعونات الأمريكية والتسهيلات والاختيارات الموجهة للقطاع الخاص فى جعل الأقلية قابضة على هذا الحجم من ثروة البلاد .. لا حباً فى سواد عيون الأقباط ، وإنما لإحداث الخلل والقلق الذى سبق وصنعه الاستعمار فى النموذج اللبنانى : أقلية مارونية مالكة ومسيطرة .. وأغلبية إسلامية من المحرومين ؟ ! ..

* وحتى فى نسبة الكنائس إلى عدد السكان .. تلك التى جعلوا منها « سبة » يشوهون بها وجه مصر - حكومة وشعباً - وكأن مصر ستتضار إذا ما جلس أبناؤها النصارى فى كنائسهم يصلون ! .. مع أن عمرو بن العاص (٥٠ ق هـ - ٤٣ هـ / ٥٧٤م -٦٦٤م) هو الذى حرر كنائس مصر من الاحتلال البيزنطى ، لا ليحولها إلى مساجد ، وإنما ليعيدها إلى أقباط مصر .. وهو الذى حال بين المسيحية المصرية وبين الفناء المحقق .. ومن بعده

أنجبت مصر إمام الفقهاء الليث بن سعد (٩٤-١٧٥هـ / ٧١٣-٧٩١م) الذى أفتى « بأن بناء الكنائس من عمارة البلاد » !. كما أنجبت جمال عبد الناصر (١٣٣٦هـ - ١٣٩٠هـ / ١٩١٨م - ١٩٧٠م) الذى أسهم وشارك فى إقامة صرح الكاتدرائية المرقصية ، التى تُرى ساريتها من أغلب أنحاء القاهرة .. وأنجبت حسنى مبارك ، الذى شهد عهده موجة من بناء الكنائس غير مسبوقة فى عقود القرن العشرين .

مصر هذه ، يصورها العملاء من أقباط المهجر ، واللوبى الصهيونى فى أمريكا ، والتحالف المسيحى فى الكونجرس الأمريكى ، وسعد إبراهيم - وجميع الذين اتخذوا الكذب فى موضوع الأقليات مصدراً للسحت الذى يرتزقون منه - وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون﴾ [١].

مصر هذه ، تقول الإحصاءات إن فيها كنيسة لكل ١٢٥٠ نصرانى ..وفيها مسجد لكل ١٢٢٧ مسلم [٢] . فأين هى التفرقة؟ وأين هى « الهموم » ؟ ! .

---

(١) الواقعة : ٨٢ .

(٢) صحيفة « الدستور » عدد ١٨ يونيو سنة ١٩٩٧م - و : محمد أنور السادات والبابا «ص٢٠٢ . طبعة القاهرة .

وإذا كانت نسبة الكنائس لعدد النصارى تكاد أن تساوى نسبة المساجد لعدد المسلمين .. فإن الواقع يقول : إن الكنائس مفتوحة على مدار النهار والليل .. ومنبر الكنيسة حر كل الحرية ، والشباب القبطى المتدين ينام فى بيته آمناً وأروقة الكنائس مفتوحة أمام التبتل النصرانى - وحتى الرهبنة - .

فمن هم المحظوظون فى بلادنا - حتى فى الكنائس والعبادات - ؟ ! ..

وقد تمنينا - فى دراسة سابقة عن « الخط الهمايونى » - أن يطبق هذا « الخط » - الذى أصدرته الدولة العثمانية قبل قرن ونصف القرن - على الأقليات الإسلامية فى بلاد نور وتنوير وليبرالية وعلمانية الحضارة الغربية ..

إن شرط حرية الوطن هو حرية جميع أبنائه ، بصرف النظر عن تنوع وتعداد الأقليات والأغلبيات .

ويستحيل أن يكون هناك مثقف حر فى وطن غير حر .. ولا مواطن حر فى وطن يتم استعداء الأجانب للتدخل فى شئونه الداخلية - على النحو الذى يفعله قلة من عملاء أقباط المهجر .. وقلة من غلاة العلمانيين الذين يرتزقون من التمويل الأجنبى لتشويه صورة وطنهم أمام الجميع .. هؤلاء الغلاة الذين يتاجرون بورقة الأقباط ، ويدعون الغيرة على بناء الكنائس ، بينما لم يعرف عن واحد منهم تدين لا بالنصرانية ولا بالإسلام ، ولم ير واحد منهم عابداً لله ، وفق أية شريعة من شرائع السماء !! .

إن أمن وأمان الوطن ، بجميع أبنائه ، هما فى الاحتماء بهويته الوطنية والقومية والحضارية المستقلة ، تلك التى حدد الدستور أنها - فى مصر - هى الإسلام .. فالإسلام - للمؤمنين به - هو عقيدة ، وهوية حضارية ، وتاريخ قومى ، وانتماء ثقافى .. وهو بالنسبة لنصارى مصر : هوية حضارية ، وتاريخ قومى ، وانتماء ثقافى .. وإذا كانت منظومة القيم هى الجامع الوطنى الأول فى بلد متدين كمصر ، فإن هذه المنظومة القيمية واحدة فى النصرانية والإسلام .. فالحلال والحرام فيهما منطقة اشتراك .. وصورة سيدة نساء العالمين مريم العذراء ، عليها السلام ، هى صورة الحشمة الإسلامية والحجاب الإسلامى .. وقيم العرض والشرف والأمانة والصدق وحب الوطن - كما حددها دين الله الواحد - لا تختلف فى شريعة عيسى ، عليه السلام ، عنها فى شريعة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ، عليه الصلاة والسلام .. فعلاقة المسجد الحق بالكنيسة الحقة هى عروة وثقى .. وهما معاً على خلاف وشقاق مع اللادينية العلمانية ، التى يتاجر نفر من ضحاياها بورقة الأقباط وعموم الأقليات .. فالأمان الحقيقى للكنيسة الوطنية لا يتحقق إلا فى مشروع المسجد الوطنى المعتدل .. ومنظومة القيم الإيمانية - المسيحية الإسلامية - هى المظلة الحامية للإسلام والمسيحية فى مواجهة التحديات الاستعمارية اللادينية الطامعة فى استقلالنا ، المحتقرة لتديننا ، إسلامياً كان هذا التدين أو نصرانياً ..

فهل يعى العقلاء حقيقة الواقع .. ومخاطر التحديات .. ومقاصد العملاء ؟ ! ..

هذا بلاغ للناس .. نتوجه به إلى كل ركاب سفينة الوطن ، الذين لا مكان لهم خارج هذا الوطن المقدس . أما دعاة الفتنة والشقاق ، فمع الدعاء لهم بالهداية والرشاد .. نتمنى أن يعى إخواننا الأقباط مخاطر فتنتهم على الوطن الجامع لجميعنا .. بل وعلى نصرانية ونصارى هذا الوطن مع الإسلام والمسلمين فيه .

التوتر الطائفى ..لماذا ؟ ومتى ؟؟

هل يمكن لعاقل أن يتصور – أو حتى يحلم – بخلو الحياة من « التوتر » ؟

إن المثل الشعبى يقول : « المصارين فى البطن بتتخانق » ! فحتى في أحشاء الفرد الواحد ، لا مفر من التوتر والتناقض والتدافع .. وأحياناً الصراع .. فما بالنا إذا كان الحديث عن أمة – مثل الأمة الإسلامية – قرر دينها – الذى مثل المكون الأول لحضارتها وثقافتها وسياسة دولتها ومنظومة قيمها – أنه ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾[1] . وأن الأصل والقاعدة والقانون

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

والسنة الإلهية التى لا تبديل لها ولا تحويل هى التعددية والتمايز والتنوع والاختلاف ، فى الشعوب والقبائل .. وفى الألسنة واللغات ومن ثم القوميات - وفى الشرائع والملل والديانات .. وفى المناهج - أى الثقافات والحضارات .. فالناس لا يزالون مختلفين ، لأن سعيهم شتى ، ولكل منهم وجهة هو موليها ..

فى أمة - كالأمة الإسلامية - اعتمدت ثقافتها التعددية ، ومن ثم تميزت حضارتها ومجتمعاتها - عبر تاريخها الطويل - بإفساح ميادين الحرية أمام كل العقائد والمذاهب ، حتى لقد جعلت تمكين غير المسلمين من حرية الاعتقاد والإعلان عن هذا الاعتقاد - الرافض للإسلام والكافر به والمنكر لأسسه وأركانه والجاحد لميزاته - والممارسة لشعائر هذا الاعتقاد - فردياً ومؤسسياً - .. جعلت هذه الثقافة والحضارة الإسلامية من الاعتراف بهذا التنوع والاختلاف والحفاظ على وجوده والتمكين لمقتضياته جزءاً من الإيمان الإسلامى ، لا يكتمل بدونه هذا الإيمان فى حضارة كهذه ، وشعوب أمة كهذه الأمة ، عاشت فيها أقدم الكنائس وأعرقها ، وكل الديانات السماوية والوضعية . من لهم كتاب ومن لهم شبه كتاب .. هل يتصور عاقل - أو حتى يحلم حالم - أن تخلو حياتها ، فى أوطانها المتعددة ، وشعوبها المتنوعة ، وتاريخها الطويل ، من التوترات الطائفية والدينية ، أو المنازعات القومية والاجتماعية ؟ ! .

إن نفى التوترات والمنازعات ، فى مجتمع متعدد الديانات والمذاهب والمصالح ، هو حلم مستحيل التحقيق .. بل هو حلم

بالسكون والموات ، لا علاقة له بمجتمعات وواقع الحياة والأحياء ..

لذلك كان الواجب هو البحث عن أسباب التوتر الطائفى ، لتخفيض درجة حرارتها وحدّتها ، والابتعاد بها عن درجة الصراع المدمر لسفينة الوطن - التى تجمع وتقل الجميع - والوقوف بهذه التمايزات والاختلافات عند إطار التنافس والتسابق والحراك الذى يولد الحيوية الاجتماعية والفكرية ، فى إطار وحدة السفينة - الوطن - وإقلاعها المتوازن وسط الأعاصير والمخاطر والأنواء .

وإذا كان الوعى بالتاريخ - الذى شهد العديد من هذه التوترات الطائفية - هو المدرسة التى نتعلم فيها ومنها الأسباب الحقيقية لهذه التوترات .. والطريقة المثلى لمعالجة حدّتها ، والابتعاد بها عن الصراعات المدمرة .. فإن مهمة هذه الدراسة هى الوعى بأسباب التوترات الطائفية فى تاريخ مصر على وجه الخصوص - والمجتمعات الإسلامية بوجه عام - ولما كانت لحظات التوتر تشيع فيها الشكوك حول مقاصد الذين يستدعون دروس ووقائع التاريخ ، بسبب « التصنيف » للهويات الدينية لهؤلاء الباحثين .. **فستعمد هذه الدراسة إلى المصادر غير الإسلامية والرؤى المسيحية - تحديداً - فى تحليل أسباب هذه التوترات .. فوقائع تاريخ هذه التوترات الطائفية قد سجلها مؤرخو تلك** العصور - وسنعمد لأوثق مصادر ذلك التاريخ - .. أما تحليل

أسباب تلك التوترات فسنحتكم فيها إلى مصادر غير مسلمة ، كى لا تكون هناك أية شبهة للتحيز للإسلام والمسلمين فى ذلك التحليل ! ..

وشهد شهود من أهلها

فى الشهادة على أن التاريخ الإسلامى للمجتمعات الإسلامية - وليس فقط الدين الإسلامى - قد حقق أعلى المستويات الممكنة للبشر فى التنوع والتسامح ، على النحو الذى جعل من بقاء واستمرارية التعددية الدينية فى هذه المجتمعات شاهد صدق على هذا التسامح ، لا توازيه أو تدانيه أية شهادات فكرية .. فى الشهادة على هذه الحقيقة الاجتماعية والتاريخية يقول مستشرق إنجليزى ، شديد التدين بالنصرانية ، وحجة فى عالم الاستشراق - هو « سير توماس أرنولد » (١٨٦٤-١٩٣٠م) « **إنه من الحق أن نقول : إن غير المسلمين قد نعموا - بوجه الإجمال - فى ظل الحكم الإسلامى ، بدرجة من التسامح لا نجد معادلاً لها فى أوروبا قبل الأزمنة الحديثة . وإن دوام الطوائف المسيحية فى وسط إسلامى يدل على أن الاضطهادات التى قاست منها بين الحين والآخر على أيدى المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية ، أكثر مما كانت عاقبة مبادىء التعصب وعدم التسامح** .. »[١].

---

(١) الدعوة إلى الإسلام - ص ٧٢٩ ، ٧٣٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م .

فهذا المستشرق الإنجليزى الحجة ، المؤمن بالنصرانية إيماناً عميقاً ، يبرئ الإسلام من التعصب ، ويشهد بتمتع غير المسلمين بتسامح دينى لم تعرفه أوروبا قبل العصر الحديث .. أى أن حاكمية الإسلام قد اقترنت بالتسامح الدينى مع غير المسلمين ، بينما افتقرت أوروبا إلى هذا التسامح فى ظل حاكمية النصرانية ، ولم تعرف أوروبا التسامح إلا مع العلمانية ، أى على أنقاض حاكمية النصرانية !! .

وإذا كان كتاب « أرنولد » - (الدعوة إلى الإسلام) - هو أوثق المصادر التى تتبعت انتشار الإسلام - بالحجة والقدوة - فى كل البلاد التى دخلها الإسلام .. فلقد قارن هذا المستشرق بين انتشار الإسلام بالسماحة وبين انتشار النصرانية بالسيف - وخاصة فى أوروبا - « فشارلمان (٧٤٢-٨١٤م) فرض المسيحية على السكسونيين بحد السيف .. وكذلك صنع الملك « كنوت » فى الدنمارك .. وجماعة إخوان السيف فى بروسيا .. والملك « أولاف ترايجفسون » فى جنوب النرويج .. والأمير « فلاديمير » فى روسيا سنة ٩٨٨م .. والأسقف « دانيال بيترومتش » فى الجبل الأسود .. والملك « شارل روبرت » فى المجر ...الخ ... الخ ...» كل هؤلاء استأصلوا المخالفين للمسيحية وقطعوا أيديهم وأرجلهم وذبحوهم أو نفوهم وشردوهم ، بمجرد تدين هؤلاء الملوك والأمراء بالنصرانية !..[1] .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٠ ، ٣٢ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٢٢-١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥٤-١٥٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ .

بل إن أوروبا النصرانية قد ضاق صدرها حتى بالتعددية المذهبية فى إطار النصرانية .. فشهدت أكثر من عشرة حروب دينية بين المذاهب النصرانية ، امتدت قرابة ثلاثة أرباع القرن (١٥٦٢-١٦٢٩م) - بين الكاثوليك والبروتستانت - ومن أشهرها حروب (١٥٦٢-١٥٦٣م) و (١٥٦٧-١٥٦٨م) و (١٥٦٩-١٥٧٠م) و (١٥٧٢-١٥٧٣م) و (١٥٧٤-١٥٧٦م) و (١٥٧٦-١٥٧٧م) و(١٥٨٠م) و (١٥٨٥-١٥٩٤م) و (١٥٨٦م) و (١٦٢١م) و (١٦٢٥-١٦٢٩م) [١].

ولقد أبيد فى هذه الحروب الدينية ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا ؟ !.

أما هذه « الظروف المحلية » ، التى قال « أرنولد » إنها المسئولة - وليس الإسلام - عن التوترات الطائفية العارضة التى عرفتها حياة الأقليات غير المسلمة فى المجتمعات الإسلامية - والتى قام بها المتزمتون والمتعصبون - فإن باحثاً نصرانياً آخر - هو المؤرخ والمفكر اللبنانى « جورج قرم » - يرجعها إلى ثلاثة أسباب :

١ - المزاج الشخصى المختل لبعض الحكام المسلمين .

٢ - والظلم والاستعلاء والاستغلال الذى مارسته الزعامات والقيادات النصرانية ، عندما تحولت من خلال جهاز الدولة الذى كان فى قبضتها - إلى سوط عذاب يلهب ظهور الأغلبية المسلمة ، الأمر الذى جلب على طوائفها غضب العامة وعنف الغوغاء والسفهاء.

---

(١) بطرس البستانى « دائرة المعارف » مادة « الحروب الدينية ».

٣ - ووقوع هذه الطوائف النصرانية - أحياناً - وخاصة المتدينة بمذاهب الكنائس الغربية - فى شراك الإغراء الاستعمارى إبان الحملات الاستعمارية - الصليبية .. والتترية والحديثة - على البلاد الإسلامية ، الأمر الذى جلب ردود الفعل على هذه الخيانات الوطنية ، فعمت بلواها على الجميع ! .

يرصد « جورج قرم » هذه الأسباب الثلاثة للتوتر الطائفى فى التاريخ الإسلامى ، محملا المسئولية عن أغلبها لأبناء دينه ، فيقول :

« ويلاحظ أن فترات التوتر أو الاضطهاد لغير المسلمين فى الحضارة الإسلامية كانت قصيرة ، وكان يحكمها ثلاثة عوامل :

العامل الأول : هو مزاج الخلفاء الشخصى ، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا فى عهد المتوكل ، الخليفة الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة . وفى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، الذى غالى فى التصرف معهم بشدة .

العامل الثانى : هو تردى الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية لسواد المسلمين ، والظلم الذى يمارسه بعض الذميين المحتلين لمناصب إدارية عالية ، فلا يتعذر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التى وقعت فى عدد من الأمصار .

أما العامل الثالث : فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبى فى البلدان الإسلامية ، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة .. إن الحكام الأجانب - بمن فيهم الإنجليز - لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية فى أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب - وهذه ظاهرة نلاحظها فى سوريا أيضاً ، حيث أظهرت أبحاث « جب » و « بولياك » كيف أن هيمنة أبناء الأقليات فى المجال الاقتصادى أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين فى دمشق سنة ١٨٦٠م ، وبين الموارنة والدروز فى جبال لبنان ١٨٤٠م و ١٨٦٠م . ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها فى أماكن عديدة ، أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية - ولا سيما الأرمن - التى تعاونت مع الغازى .

بل إنه كثيراً ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامى ، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح ، سبباً فى نشوب قلاقل طائفية ، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين فى الابتزاز ، وفى مراعاتهم وتحيزهم ، إلى حد الصفاقة أحياناً ، لأبناء دينهم ، ما كان يندر أن تصدر منهم

استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة »[1].

فأسباب التوتر الطائفى ، فى الحضارة الإسلامية والتاريخ الاجتماعى الإسلامى - كما يستقرئها « جورج قرم » - هى المزاج الشخصى العنيف لحاكم من الحكام .. أو صلف وصفاقة واستعلاء واستغلال الوزراء والجباة النصارى لعامة الأغلبية الإسلامية الفقيرة . أو وقوع قطاعات من الأقليات النصرانية فى شراك الخيانة الوطنية التى نصبتها لها وأغرتها بها القوى الاستعمارية الغازية لديار المسلمين .

شهادة التاريخ على صدق التحليل :

وحتى يدرك القارئ المعاصر ، أن هذا التحليل الذى قدمه « جورج قرم » إنما هو ثمرة للاستقراء الأمين لجمل مسيرة التاريخ الإسلامى ، فإننا نقدم - من أوثق المصادر التاريخية - النماذج الشاهدة على عمق وصدق هذا التحليل .

* فالاضطهاد الذى أصاب غير المسلمين فى عصر المتوكل العباسى (٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٧-٨٦١م) لم يكن خاصاً بغير المسلمين ، ذلك أن شذوذ هذا الحاكم قد عمم تعصبه ليشمل

---

(١) « تعدد الأديان ونظم الحكم : دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة » ص ٢١١-٢٢٤ - طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م . والنقل عن : د . سعد الدين إبراهيم « الملل والنحل والأعراق » ص ٧٢٩ ، ٧٣٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م .

الكثير من تيارات الفكر الإسلامى أيضاً . فلقد اضطهد الشيعة ، حتى هدم قبر الحسين بن على بن أبى طالب ، وحرث مكانه ، وحوّله إلى أرض زراعية ! .. واضطهد المعتزلة ، حتى لقد أسقط شهادتهم أمام القضاء ، ونفاهم إلى جزيرة « دهلك » - جنوبى البحر الأحمر - وهو منفى كان يضرب به المثل فى البعد وسوء المناخ .

فلم يكن الاضطهاد - فى عصر المتوكل - وقفاً على غير المسلمين ، ولا خاصاً بالنصارى .

* وكذلك كان الحال مع التوتر الطائفى والاضطهاد الدينى ، الذى شهده عصر الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٧٥ - ٤١١هـ / ٩٨٥-١٠٢١م) . فلقد عم هذا الاضطهاد كل الشعب المصرى - الذى ظل على مذهبه السنى رغم حكم الدولة الشيعية الإسماعيلية الباطنية - فلقد أصدر الحاكم بأمر الله مراسيم اضطهاد أهل السنة ، وسبّ كبار الصحابة - أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية .. وغيرهم - سنة ٣٩٥هـ / سنة ١٠٠٥م أى قبل اضطهاده للنصارى بخمس سنوات ! .. بل وكتب سبّ الصحابة بالذهب والأصباغ على لوحات علقت على المساجد والمقابر والدور والحوانيت !! .

أما مراسيم اضطهاده للنصارى ، وهدم عدد من كنائسهم سنة ٤٠٠هـ / سنة ١٠٠٩م ، فإنها نموذج لاجتماع عامل النَّزق الشخصى مع عامل ردّ الفعل على تجبر واستعلاء واستغلال زعماء النصارى إزاء الأغلبية المسلمة .. فالدولة الفاطمية كانت

تتمذهب بالغلوّ الشيعى الباطنى ، وتخالف عقيدة الشعب المصرى ، ولذلك لجأت - كالاستعمار - للاستعانة بجهاز الدولة وجباية الضرائب والخراج والمكوس إلى الأقليات ، ليكونوا آليات القهر والاستغلال للشعب السنى .. فولى الوزارة فى عهد هذه الدولة - من النصارى - عيسى بن نسطورس .. وفهد بن إبراهيم - الذى كان يلقب بالرئيس .. ومنصور بن عبدون - الذى كان يلقب بالكافى .. وزرعة بن نسطورس - الذى كان يلقب بالشافى .. ووليها - من اليهود - منشا بن إبراهيم القزاز ويعقوب بن كلس .

ومع سيطرة هؤلاء على جهاز الدولة ، واستبدادهم بثروات الشعب ، كان نفوذ زوجة الخليفة الفاطمى العزيز بالله (٣٤٤-٣٨٦هـ / ٩٥٥-٩٩٦م) الذى تزوج من مسيحية ملكانية ، تولى أخوها « أرسانيوس » بطريركية القاهرة سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م ، ثم بطريركية الإسكندرية سنة ٣٩٠هـ / سنة ١٠٠٠م . كما تولى أخوها الثانى بطريركية الملكانيين فى القدس سنة ٣٧٥هـ/سنة ٩٨٥م .وكان لهذه الزوجة ، ولابنتها « ست الملك » ، نفوذ طاغ على الخليفة ، طبع المناخ الذى ولد فيه ونشأ الحاكم بأمر الله - بن العزيز بالله - الأمر الذى جعل موقفه من النصارى ردّ فعل انقلابى على هذا النفوذ الطاغى الذى مارسه رؤساء النصارى ضد عامة المسلمين .

وحتى ندرك مقدمات الاحتقان الطائفى ، الذى شحنت به أغلبية الشعب المسلم ضد استبداد الأقلية النصرانية واليهودية بثروات ومقدرات البلاد والعباد ، يكفى أن نعلم أن هذه القضية قد أصبحت محور مقاومة الأمة للدولة ، وغرضاً من أغراض نظم الشعر فى ذلك التاريخ .

لقد استخدم الشعب فن الصور والتماثيل فى مقاومة هذا الاستبداد الطائفى ، فصنعوا تمثالاً من ورق ، لإنسان يمد يده للخليفة بعريضة فيها شكاية من الشكايات ونصبوا هذا التمثال - الذى بلغ فى دقة المحاكاة ، صورة الإنسان الحقيقى - نصبوه فى طريق الخليفة العزيز بالله . فلما تناول الخليفة العريضة ، إذا بها « منشور » قد كتب فيه : « بالذى أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك ، ألا كشفت ظلامتى ؟!! » .

أما الشعراء ، فلقد أفاضوا فى وصف هذا الاستبداد الطائفى فقال الحسن بن بشر الدمشقى :

تَنَصَّرْ فالتنصُّرُ دين حــق
عليـه زماننـا هــذا يــدلُّ
وقُل بثلاثة عزُّوا وجــلُّوا
وعطِّل ما سواهم فهو عطــل
فيعقوب الوزير أب ، وهـذا
العزيز ابن ، وروح القدس فضل !

وقال الشاعر الخلال - فى السيطرة المالية للأقلية النصرانية - واستبدادها الإدارى :

إذا حكم النصارى فى الفروج

وغالوا فى البغال وفى السروج

وذلت دولة الإسلام طـــرا

وصار الأمر فى أيدى العلــوج

فقل للأعور الدجال هـــذا

زمانك إن عزمت على الخروج ! .

أما نفوذ اليهود ، واستبداد وزرائهم .. ففيه يقول الشاعر المصرى الحسن بن خاقان :

يهود هذا الزمان قد بلغـــوا

غاية آمالهم وقد ملكـــــوا

العز فيهم والمال عندهمـــو

ومنهم المستشار والملــــك

يا أهل مصر إنى نصحت لكم

تهوّدوا ، قد تهوّد الفلك ! [1] .

وحتى يدرك القارىء - ويطمئن قلبه وعقله - أننا أمام حقائق تاريخية ومظالم اجتماعية فجرت التوترات الطائفية الشهيرة فى تاريخنا .. وأن الأمر ليس مبالغات شعراء .. يكفى

---

(١) المقريزى « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » ص ٢٩٧، ٢٩٨ - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م و (الخطط) جـ٢ ص ١٢٣ - طبعة دار التحرير - القاهرة .. وآدم متز (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) جـ١ ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٧، ١١٨ - طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م .

أن يقرأ للمستشرق الألمانى الحجة « أدم متز » هذه العبارة الجامعة التى قال فيها : « **لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام** »!![1].

هذا عن دور العامل الثانى - استبداد الأقلية بالأغلبية - فى إثارة التوترات الطائفية .

* أما العامل الثالث - فى أسباب التوترات الطائفية - الذى حدده « جورج قرم » - وهو موالاة الغزاة ، إبان فترات اجتياح الاستعمار - التترى والصليبى والحديث - لبلاد الإسلام ، فإن وقائع التاريخ - فى أوثق مصادره - شاهدة على أن التوترات الطائفية إنما جاءت رد فعل انتقامى لهذه الخيانات الوطنية ، التى دفعت قلة من النصارى إلى الاحتماء بالأجنبى ، فكان رد الفعل الذى غالباً ما يعمم الانتقام - وفق قاعدة ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾[2] .

- فعندما تحالف الصليبيون مع الوثنية التترية ضد الإسلام وأمته ووطنه ودولته ، واستخدموا - فى إقامة هذا التحالف - الأقلية النصرانية النسطورية فى بلاد التتر ، وإحدى زوجات الخان التترى - المسيحية النسطورية - فجاء الاجتياح التترى للمشرق العربى - بقيادة القائد المسيحى النسطورى « كتبغا »

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى - جـ١ ص ١٠٥ .

(٢) الأنفال : ٢٥ .

فتمت غواية نصارى دمشق ، فانحازوا إلى سلطة التتر ، وانقلبوا على مواطنيهم المسلمين .. ويصف المقريزى (٧٦٦-٨٤٥هـ / ١٣٦٥-١٤٤١م) - وهو عمدة مؤرخى العصر - هذا الاستعلاء والاستفزاز النصرانى - فى دمشق - فيقول :

« واستطال النصارى بدمشق على المسلمين ، وأحضروا فرماناً من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم ، فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان ، ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات ، وصبُّوه على أبواب المساجد ، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم ، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب ، وصاروا يمرون به فى الشوارع إلى كنيسة مريم ، ويقفون به ويخطبون فى الثناء على دينهم ، وقالوا جهراً : «ظهر الدين الصحيح ، دين المسيح» ، وخرّبوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم . فقلق المسلمون من ذلك ، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو - وهو كتبغا - فأهانهم وضرب بعضهم ، وعظم قدر قسوس النصارى ، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم »!![1].

وأمام عنف الخيانة ، والاحتماء بالأجنبى المستعمر ، جاء عنف الانتقام .. فبمجرد الانتصار الإسلامى على التتر فى

---

(١) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ق ٢ ص ٤٢٥ ، ٤٣٢ - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

« عين جالوت » (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) ، وعندما وصل إلى أهل دمشق كتاب السلطان قطز (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) يبشرهم بهذا الانتصار « وبفتح الله له ، وخذلانه التتر ، سر الناس سروراً كثيراً ، وبادروا إلى دور النصارى فنهبوها ، وخرّبوا ما قدروا على تخريبه ! »[١] .

فالوقوع فى شراك الغواية الاستعمارية ، والاحتماء بالغزاة ، سبب أساسى من أسباب التوترات الطائفية فى تاريخ المجتمعات الإسلامية .

- ولقد تكرر هذا المشهد فى تاريخنا الوطنى عدة مرات .. ومنها ما صنعه بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١م) إبان الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣هـ / ١٧٩٨م) . فلقد أعلن بونابرت - وهو فى الطريق إلى بلادنا - عزمه على تجنيد عشرين ألفاً من أبناء الأقليات فى الشرق ، ليتخذ منهم قبضة ضاربة ، وقفازاً محلياً ، وموطىء قدم لحملته الاستعمارية وحلمه الامبراطورى، ولقد نجح فى إغواء قلة - سماها الجبرتى (١١٦٧-١٢٣٧هـ / ١٧٥٤-١٨٢٢م) - مؤرخ العصر - « أراذل القبط » ، خرجوا على كنيستهم الوطنية ، وشعبهم المصرى ، وقادهم المعلم يعقوب حنا (١٧٤٥-١٨٠١م) - الذى سماه الجبرتى - « يعقوب اللعين » !! . فاشتركوا - مع جيش فرنسا -

---

(١) المصدر السابق . جـ١ ق٢ ص٤٣٢ .

فى احتلال القرى ، وحرقها ونهبها - وخاصة فى الصعيد - وجعل لهم بونابرت نصف عضوية « ديوان المشورة » . والسلطة الفعلية فى الجهاز المالى والإدارى .. وبعبارة الجبرتى فلقد فوض الجنرال كليبر (١٧٥٣-١٨٠٠) للجنرال يعقوب « أن يفعل بالمسلمين ما يشاء .. حتى تطاولت النصارى - من القبط ونصارى الشوام - على المسلمين بالسب والضرب ، ونالوا منهم أغراضهم ، وأظهروا حقدهم ، ولم يبقوا للصلح مكاناً !! وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين »[(١)].

ورغم أن المسلمين قد رفضوا أخذ الأغلبية النصرانية الوطنية بجريرة هذه القلة الخائنة . بل وصدرت المنشورات إلى مختلف أقاليم مصر تحذر من الانتقام ، إلا أن هذه القلة الخائنة أبت إلا أن ترحل فى ركاب جيش الحملة الفرنسية لتسعى لدى الحكومة الفرنسية ، وأيضاً الانجليزية ، لتغريب مصر ، وفصلها عن محيطها الإسلامى ، وتراثها الحضارى الإسلامى ، لتكون موالية للغرب ، بدلا من الشرق الإسلامى .. ولتصبح شرائعها ونظمها فرنسية .. بل ولتكون أداة الاختراق الفرنسى لقلب أفريقيا بواسطة الكنيسة المصرية ، التى أرادوا

---

(١) «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» جـ٥ ص١٣٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م

توظيفها فى خدمة المشروع الاستعمارى ، وإخراجها عن موقفها الوطنى التاريخى !!(1) .

ومنذ ذلك التاريخ ، تمايزت فى صفوف الأقليات - الدينية والقومية - المواقف والاتجاهات .

* فالأكثرية الساحقة تقف مع الأغلبية المسلمة فى خندق الوطنية المصرية والقومية العربية والحضارة الإسلامية .

* والقلة العميلة - أو المخدوعة - تراهن على الأجنبى - حماية وثقافة - فتجلب على غيرها هذه التوترات الطائفية التى تظهر وتختفى ، وتشتد وتضعف بمقدار الغواية الاستعمارية لنفر من أبناء هذه الأقليات .

تلك هى قصة أمتنا وحضارتنا مع التوترات الطائفية ، كما رصدها المفكرون والباحثون غير المسلمين ، وكما وردت وقائعها فى أمهات مصادر التاريخ .

فهل نتأمل جميعاً دروس وعبر هذه الصفحات من تاريخنا، لنحمى جميعاً - مسلمين ونصارى - هذه السفينة - الوطن - الذى لا مكان لأى منا خارج ترابه الطاهر ، ولا مستقبل لأى منا إذا تم اختراقه بواسطة العملاء والدهماء ؟ ! .

إننا نبصِّر ونذكِّر .. فالذكرى لابد وأن تنفع كل المؤمنين .

---

(1) د . أحمد حسين الصاوى « المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة » ص ١٢٣-١٢٥، ١٢٩، ١٣٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦م .

المسلمون والآخر

من يعترف بمن ؟ ..

ومن يستأصل من ؟؟

المسلمون - وأحياناً الإسلام - متهمون فى الكثير من دوائر الفكر الغربى وكل دوائر الفكر العلمانى ، بالتعصب المقيت ، وإنكار الآخر ، وتكفير الآخرين .. ولقد شاعت وتشيع هذه الاتهامات على ألسنة وأقلام غلاة العلمانيين فى بلاد الإسلام ، يستوى فى ذلك المسلمون وغير المسلمين من هؤلاء العلمانيين .

وإذا كان تحرير وتحديد مفاهيم المصطلحات هو الطريق الآمن لأى حوار حقيقي . فلنبدأ بتحرير مصطلح « التكفير » :

* إن الكفر هو نقيض الإيمان ، فكل مؤمن بشيء هو- بالضرورة- كافر وجاحد ومنكر لنقيض هذا الشيء . فالمؤمن بالتثليث كافر بالتوحيد .. والمؤمن بالتوحيد كافر ومنكر للتثليث .. والمؤمن بأن عزيرا - « عزرا » - عبد الله كافر ومنكر لعقيدة أن عزيرا ابن الله - والعكس صحيح - .. والمنكر لكون القرآن وحياً إلهياً ، ومحمداً ﷺ نبياً ورسولاً ، هو - بالضرورة - كافر بالإسلام ديناً سماوياً . وكذلك الحال فى ميدان المذاهب والفلسفات و « الأيديولوجيات » . فالمؤمن بالفاشية والنازية كافر بالديمقراطية - والعكس صحيح - .. والمؤمن بالشيوعية كافر بالليبرالية الرأسمالية - والعكس صحيح - . فكل مؤمن بشيء هو كافر بنقيضه ، **فالكفر ليس سبة ولا نقيصة بإطلاق وتعميم ، ولكن المعيار فيه هو كفر بماذا ؟** . **وكذلك الإيمان ، ليس ميزة وإيجابية بإطلاق وتعميم ، وإنما العبرة فيه هو الإيمان بماذا ؟** .

ولقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة ، التى يجهلها البعض ويتجاهلها الكثيرون ، عندما صور الإيمان والكفر وجهين لعملة واحدة ، فقال : ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله**

سميع عليم ﴾[1].

فأين هى التهمة - إذاً - فى أن يصنف المسلمون من يكفرون بالإسلام والقرآن ورسول الإسلام فى عداد الكافرين ؟ .. وألا يصنف المؤمنون بالتثليث أهل التوحيد فى عداد الكافرين بهذا التثليث ؟ .. بل وألا تعتبر المذاهب النصرانية الكبرى -الأرثوذكسية .. والكاثوليكية .. والبروتستانتية - المخالف لها فى « قانون إيمانها » كافراً بهذا القانون ، داخلاً فى « الحرمان الدينى » الذى هو الكفر والتكفير ؟ ! .

تلك هى حقيقة الزيف والافتراء اللذين يخص بهما الفكر العلمانى والإعلام العالمى الإسلام والمسلمين ! .

* أما تهمة « إنكار الآخر » ، التى شاع ويشيع اتهام المسلمين بها ، فإنها تعنى إنكار حق الآخر فى الوجود ، والسعى إلى استئصاله ، أو على الأقل « استثنائه » من المشاركة فى العمل العام وهنا يرد التساؤل - بل والتساؤل الإنكارى والاستنكارى: - من - فى الواقع المعاصر .. بل والقديم - هو الذى ينكر الآخر؟ ومن الذى يستأصل الآخر ويستثنيه ؟ .

إن واقع الحال المعاصر يقول - بكل ألسنة الحال والمقال - « إن المسلمين هم ضحايا الإنكار والاستثناء والاستئصال » : فكثير من البلاد الإسلامية - التى أخذت بالتعددية الحزبية - تسمح بكل الأحزاب التى تمثل كل الأيديولوجيات ، لكنها

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

تستثنى الإسلاميين ، الذين ينطلقون من الدعوة إلى الشريعة الإسلامية وإسلامية الدولة والقانون والاجتماع . وكثير من المؤسسات الثقافية والفكرية ، التى يقبض على زمامها العلمانيون ، تجد فيها كل ألوان الطيف الفكرى والفلسفى والأيديولوجى ، بينما الاستثناء والإقصاء والاستئصال خاص بالإسلاميين ومرجعية وأيديولوجية الإسلام .. وكل الدول الديمقراطية فى الغرب الديمقراطى ترضى عن نتائج الانتخابات فى العالم الإسلامى ، يميناً كانت أو يساراً توجهات الفائزين فى هذه الانتخابات ، اللهم إلا إذا جاءت صناديق الاقتراع بالإسلام والإسلاميين . فهنا يصل الإنكار والاستئصال والإقصاء إلى حد تأييد الديمقراطية الغربية للانقلابات الفاشستية على إرادة الشعب والانتخابات الديمقراطية ! .. وكذلك الحال مع الحق الفطرى والديمقراطى فى « تقرير المصير » فهو مطلب ديمقراطى يسعى إليه الغرب الديمقراطى ، بل ويفرضه أحياناً - كما حدث فى « تيمور الشرقية » - وسكانها أقل من مليون - لكن هذا الغرب الديمقراطى يستثنى الشعوب المسلمة من الحق الطبيعى والديمقراطى فى « تقرير المصير » . وشواهد هذا الاستثناء والإقصاء تغطى خريطة المعمورة من كشمير ، إلى الفلبين ، إلى بورما ، إلى البوسنة ، وكوسوفا ، وحتى فلسطين .. ومثل ذلك يحدث على جبهة حقوق الإنسان ، فمن حق كل إنسان وشعب وأمة أن يختار القانون الذى يحكم حياته ، اللهم إلا إذا كان هذا

القانون هو الشريعة الإسلامية . فهنا يصبح هذا الحق الطبيعى - فى نظر الديمقراطية الغربية والحرية الليبرالية - تطرفاً وتشدداً ورجعية و « أصولية مرذولة » ، بل وانقلاباً على حقوق الإنسان ؟ !! .

***

وأمام هذا النفاق الغربى والعلمانى - الذى تفوق على نفاق زعيم المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول !! - لابد أن نتساءل :

- لماذا هذا الإنكار والجحود والاستثناء والإقصاء للإسلام والإسلاميين والمسلمين ؟ . وهل هذا الموقف حديث ؟ ونابع من الأطماع الاستعمارية الحديثة والمعاصرة فى بلاد المسلمين ؟ .. أم أن لهذا الموقف جذوره فى الثقافة الغربية تجاه الآخر - عموماً- وخاصة إذا كان هذا الآخر هو الإسلام والمسلمون ؟ ..

العالم فى الصورة الإسلامية

إن دراسة هذه القضية المشكلة فى الثقافة الغربية ، تقتضى رؤيتها مقارنة بالرؤية الإسلامية للآخر لا لمجرد المقارنة ، وإنما ليعرف الناس من ينكر من ؟ .. ومن هو الذى يعترف ويتعايش مع كل الآخرين ؟ .. ومن الذى يجحد ويسعى لاستئصال كل الآخرين ؟ ! ..

إن الرؤية الإسلامية - الفكرية والعقدية .. والتى تجسدت فى تاريخنا الحضارى - ترى أن الأصل والسنة والقانون ، هو التنوع والتمايز والاختلاف .

فالواحدية والأحدية فقط للذات الإلهية ، ومن عدا وما عدا الذات الإلهية يقوم على التعدد والاختلاف .. ذلك هو القانون التكوينى الذى يسود ويحكم كل عوالم المخلوقات ، فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، وفى الأفكار والفلسفات والأيديولوجيات .

* لقد بدأت الإنسانية أمة - جماعة - واحدة ، ثم صارت شعوباً وقبائل ، ليتم بينها التسابق والتدافع والتعارف ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾[1].

وهذه التعددية هى سنة كونية ، وآية من آيات الله سبحانه وتعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[2].

* ومع سنة وقانون التعددية فى الشعوب والأمم والقبائل ، ترى الصورة الإسلامية للعالم أن الأصل هو تنوع الإنسانية فى الألسنة واللغات - ومن ثم فى القوميات - وكذلك فى الأجناس

---

(١) البقرة : ٢١٣ .

(٢) الحجرات : ١٣ .

والألوان . وهو تنوع يبلغ مرتبة « الآية » من آيات الله ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾[1].

* ومع التعدد والتنوع والاختلاف فى الشعوب والأمم والجماعات وفى اللغات والقوميات ، وفى الأجناس والألوان . هناك قانون وسنة وآية التنوع فى الشرائع والملل الدينية ، وفى المناهج والثقافات والحضارات ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾[2].

فالناس سعيهم شتى ﴿إن سعيكم لشتى ﴾[3]. ﴿ ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات ﴾[4].

وهذه الصورة الإسلامية الموجودة ، بعوالمه المختلفة ، والقائمة على التنوع والتعدد والاختلاف والتعايش والتعارف .. لم تقف عند الموقف النظرى ، الذى يعترف بالآخر على مضض ، والذى

---

(١) الروم: ٢٢.

(٢) المائدة: ٤٨.

(٣) الليل: ٤.

(٤) البقرة: ١٤٨.

يضيق بواقع التعدد والاختلاف مع التسليم بواقعه ووجوده .. وإنما تبلغ هذه الصورة - فى التحضر والرقى - حد العدل والإنصاف لهذا الآخر ، على اختلاف ألوان هذا الآخر .

فعلى حين يقف إيمان اليهود عند اليهودية وحدها ، مع إنكار وتكفير الآخرين ، وعلى حين تصنع مذاهب النصرانية ذلك مع كل الآخرين ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم** ﴾[1]. يتفرد الإسلام والمسلمون بالاعتراف بكل الشرائع والملل وجميع النبوات والرسالات ، وسائر الكتب والصحف والألواح التى مثلت وحى السماء إلى جميع الأنبياء والرسل ، منذ فجر الرسالات وحتى ختام هذه الرسالات .. وفوق هذا الاعتراف هناك القداسة والتقديس والعصمة والإجلال لكل الرسل وجميع الرسالات ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ...** ﴾[2].

فقانون الإيمان لدى كل ملة غير ملة الإسلام لا «يكتمل» إلا بإنكار كل الآخرين وتكفيرهم ، والإيمان الإسلامى وحده هو الذى لا يكتمل إلا إذا آمن أصحابه بكل النبوات والرسالات وكتب وشرائع هذه

---

(١) البقرة : ٩١ .

(٢) البقرة : ٢٨٥ .

النبوات والرسالات . بل ولا يكتمل هذا الإيمان الإسلامى إلا إذا مكّن المسلمون أهل تلك الشرائع والملل من إقامة عقائدهم ، المخالفة للإسلام ، بل والتى تنكر وتجحد هذا الإسلام !!

وما على الذين يريدون المقارنة بين صورة الآخر فى الثقافة الإسلامية ، والعقيدة الإسلامية ، والوجدان الإسلامى ، ليدركوا هول البون الشاسع والتناقض الفاحش بين هذه الصورة وبين صورة الإسلام والمسلمين فى ثقافة الآخر غير المسلم . ما على هؤلاء إلا أن ينظروا إلى صورة الآخر فى ثقافة الإسلام والمسلمين .

* فصورة موسى ، عليه الصلاة والسلام ، وأخيه هارون ، عليه السلام ، فى الثقافة الإسلامية - التى صاغها وصبغها القرآن الكريم - هى صورة حبيب الله ، الذى صنعه الله على عينه ، واستخلصه لنفسه ، وجعله كليمه واستجاب دعاءه ، وسلّم عليه ، وجعله القوى الأمين ، وآتاه الكتاب والفرقان والسلطان وصورة هذا الكتاب - التوراة - فى القرآن - هى صورة الإمام والرحمة والهدى والنور ﴿ **وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى** ﴾[1]. ﴿ **واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً** ﴾[2].

---

(١) طـه : ٣٩ .

(٢) مريم : ٥١ ، ٥٢ .

﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾[1]. ﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾[2].

﴿ قال رب اشرح لى صدرى * ويسر لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى * يفقهوا قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى * كى نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً * إنك كنت بنا بصيراً * قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾[3]. ﴿ سلام على موسى وهارون * إنا كذلك نجزى المحسنين * إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾[4].

﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾[5]. ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴾[6].

---

(١) النساء: ١٦٤.

(٢) الأعراف: ١٤٤.

(٣) طه: ٢٥-٣٦.

(٤) الصافات: ١٢٠-١٢٢.

(٥) القصص: ٢٦.

(٦) البقرة: ٥٣.

﴿وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾[1]. ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين﴾[2].

﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾[3].

﴿قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾[4]. ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾[5].

تلك هى الصورة القرآنية - التى صنعت وصبغت الثقافة الإسلامية - تجاه أنبياء اليهودية وشريعتها وكتابها .. فهل يستطيع حتى أكثر حاخامات اليهودية تعصباً، أو أشد علمانييها تحرراً أن يجد شيئاً من ذلك، أو شبيهاً بشيء من

---

(١) النساء: ١٥٣.

(٢) الأنبياء: ٤٨.

(٣) الأحقاف: ١٢.

(٤) الأنعام: ٩١.

(٥) آل عمران: ٢-٤.

ذلك فى تصور اليهود وثقافتهم عن الآخر ، وخاصة إذا كان هذا الآخر هو الإسلام والقرآن ورسول المسلمين وأمة الإسلام وحضارتهم ؟ ! .

إنه سؤال يتحدى أن يكون له عند اليهود جواب ! ..

* وكذلك الحال مع صورة الإسلام وثقافة المسلمين عن مريم ، عليها السلام - التى هى فى الإسلام سيدة نساء العالمين ، التى أحصنت فرجها ، وتنزهت عن مطاعن الطاعنين ، والتى تقبَّلها الله بقبول حسن ، واصطفاها وسيَّدها ، ﴿ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ (١) . ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفَّلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنَّى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (٢) . ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ (٣) .

---

(١) التحريم: ١٢ .

(٢) آل عمران : ٣٧ .

(٣) آل عمران : ٤٢ .

تلك هى صورة مريم فى العقيدة والثقافة والحضارة الإسلامية .. فأين منها صورة آل بيت رسولنا محمد ﷺ ، وصورة أمهات المؤمنين ، فى الثقافات النصرانية ، على اختلاف المذاهب والعصور والأوطان ؟ ! .

إنه سؤال يتحدى أن يجد من ينطق بجواب .. أى جواب ؟ !.

* ونفس الشيء مع صورة عيسى ابن مريم ، عليهما السلام ، فى الثقافة الإسلامية .. إنه الوجيه .. المبارك .. المؤيد بالبينات وروح القدس .. وبالكتاب والحكمة .. وبالمعجزات .. والذى عليه سلام الله يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين** ﴾[1]. ﴿ **قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً * وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً * والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً** ﴾[2]. ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس** ﴾[3].

---

(١) آل عمران : ٤٥ .

(٢) مريم: ٣٠-٣٣.

(٣) البقرة : ٨٧ .

﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾[1].

﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون * وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾[2]. ﴿ ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾[3].

تلك هى صورة عيسى وإنجيله - الذى يطلب القرآن من أهله أن يحتكموا إليه - فما هى صورة محمد صلى الله عليه وسلم - ، وقرآنه الكريم فى الثقافة النصرانية واللاهوت

---

(١) آل عمران : ٤٨ .

(٢) المائدة : ٤٦-٤٨ .

(٣) آل عمران : ٤٩ .

النصرانى ؟ وهل يرضى النصارى واليهود بتحكيم القرآن ، كما يدعوهم القرآن إلى تحكيم التوراة والإنجيل ؟ ! .. أم يجعلون من أنفسهم « ورقة فيتو » لتحكيم علمانية الغرب بدلا من القرآن » .

أسئلة تتحدى وجود من ينطق بجواب ! ..

الصورة الغربية للعالم

وإذا كانت هذه هى الصورة الإسلامية للوجود والعالم : التعدد .. والتنوع .. والاختلاف .. والاعتراف بالآخر ، على النحو الذى كاد أن يجعل « الآخر » جزءاً من « الذات » فما هى صورة العالم فى الثقافة الغربية ، وما هى حال الآخر فى ثقافة الغرب والمتغربين ؟ .

* إن نزعة المركزية الغربية ، قد جعلت الثقافة الغربية السائدة تنكر تنوع العالم إلى حضارات متعددة ومتمايزة ومستقلة فى ثقافاتها . فزعمت هذه المركزية أن الحضارة الغربية هى الحضارة العالمية . وأن العلم والتحضر قد بدأ بالإغريق ، وانتهى بالنهضة الغربية الحديثة . وأن إسهامات الآخرين - وخاصة المسلمين - لا تعدو أن تكون « إسهامات » ساعى البريد ، الذى نقل تراث الإغريق إلى أوروبا عصر النهضة والتنوير .

وبسبب من هذه النزعة المركزية الغربية ، كان الاستعمار الغربى - وهو يبيد البنية الحضارية والثقافية للشعوب والأمم التى ابتليت بهذا

الاستعمار - بتقمص دور صاحب « الرسالة الحضارية والإنجاز التقدمى » . فهو الأقوى .. والأقوى هو الأصلح ، والأجدر بالبقاء - وفق قاعدة وفلسفة القانون الصراعى الذى طبقه « داروين » (١٨٠٩-١٨٨٢م) فى عالم الأحياء ! .. فالطبيعى - وفق هذه النزعة المركزية - أن يصرع القوى الضعيف ، وتزيل الحضارة الغازية البنية الموروثة للحضارات المغزوة ، لتراث العالم ، وتصبغه - بالتغريب .. وأخيراً بالعولمة - فى قالب حضارى وثقافى وقيمى واحد .

* ولقد ضمن للغرب « راحة الضمير » وهو يمارس هذا العدوان على الآخر الحضارى - وبالذات الآخر الإسلامى - ذلك الميراث المشوه والعدائى الذى حفلت به ثقافته التاريخية ، على اختلاف حقولها وميادينها، إزاء الإسلام ومقدساته وأمته وحضارته .. وهو الميراث الذى لا يزال فاعلاً فى الإعلام الغربى والتعليم الغربى ، ودوائر الفكر والدراسات . وعند صناع القرار حتى كتابة هذه السطور ! .

* ففى الثقافة الشعبية الغربية تتعلم العامة من « ملحمة رولاند » - حوالى سنة ١٠٠٠م - أن المسلمين يعبدون الثالوث :

١ - أبوللين Apollin ٢ - وتيرفاجانت Tervagant

٣ - ومحمد Mohamet .

وأن المسلمين إنما يعظمون يوم الجمعة ، لأنه يوم إلهة الحب فينوس Venus بينما المسيحيون يعظمون يوم الأحد لأنه يوم الله !.

ولقد لعبت هذه الصور - التى شاعت فى الثقافة الشعبية - دورها فى تجييش أحقاد العامة والدهماء فى الحملات الصليبية ضد الإسلام وعالمه وأمته وحضارته ، فتحدثت هذه الملحمة « ملحمة رولاند » عن المسلمين فقالت لهؤلاء الدهماء : « انظروا إلى هذا الشعب الملعون : إنه شعب ملحد ، لا علاقة له بالله . وسوف يمحى اسمه من فوق الأرض الزاخرة بالحياة ، لأنه يعبد الأصنام . لا يمكن أن يكون له خلاص ، لقد حكم عليه . فلنبدأ إذن تنفيذ الحكم باسم الله » ! . ثم تبدأ ملاحم القتال الصليبى ، بعد تلاوة هذا الذى جاء فى ملحمة رولاند » !.

* ولم يكن الأمر فى دوائر الثقافة اللاهوتية خيراً منه فى الثقافة الشعبية .. فكما يقول أحد العلماء والمفكرين الألمان :

« لقد اعتبر المسيحيون الأوروبيون محمداً - ﷺ - رجلاً عاش حياة داعرة ، وتجاوز خبثه كل حدود الدناءة والانحطاط .. ولم يتورع خيالهم عن الادعاء بأن رسول الإسلام كان فى الأصل كاردينالاً كاثوليكياً، تجاهلته الكنيسة فى انتخابات البابا ، فقام بتأسيس طائفة ملحدة فى الشرق انتقاماً من الكنيسة . واعتبرت أوروبا المسيحية ، فى القرون الوسطى

محمداً المرتد الأكبر عن المسيحية ، الذى يحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية »!!.

وها هو أكبر فلاسفة الكاثوليكية « القديس » توما الأكوينى (١٢٢٥-١٢٧٤م) يتحدث عن رسول الإسلام ، فيصوره للثقافة اللاهوتية ، بقوله : « لقد أغوى محمد الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية .. وحرَّف جميع الأدلة الواردة فى التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التى كان يتلوها على أصحابه . ولم يؤمن برسالته إلا المتوحشين من البشر الذين كانوا يعيشون فى البادية »!!.

أما « مارتن لوثر » (١٤٨٣-١٥٤٦م) - رأس البروتستانتية - فهو القائل عن القرآن : « أى كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن ، المليء بالأكاذيب والخرافات والفظائع »!!.

وهو الذى يصف رسول الإسلام - ﷺ - بأنه « خادم العاهرات وصائد المومسات » !!.

كل ذلك ليجيش القساوسة والدهماء فى الحرب ضد الأتراك العثمانيين فيقول : « على القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد ، حتى يزداد المسيحيون عداوة له ، وأيضاً ليقوى إيمانهم بالمسيحية ، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب - ضد الأتراك - ويضحوا بأموالهم وأنفسهم »!!.

فهل هناك مقارنة بين ثقافة إسلامية لا يكتمل إيمان أهلها إلا بما رأينا من أوصاف قرآنية لموسى وعيسى ومريم ، وبين هذه الثقافة اللاهوتية التى علقت قوة الإيمان بالمسيحية على هذا الذى وصفت به الوحى القرآنى ، ونبى الإسلام ؟!!.

هل هناك وجه للمقارنة ؟!:

* وليس لأحد أن يقول إن هذه الصفحة من صفحات الثقافة اللاهوتية الغربية قد طويت وانقضت .ففى مؤتمر «كولورادو» - الذى انعقد بأمريكا سنة ١٩٧٨م - لتنصير المسلمين ، تحدثوا عن ضرورة اختراق الإسلام ، لتنصير المسلمين من خلال الثقافة الإسلامية ، وبالاعتماد المتبادل مع الكنائس الوطنية فى الشرق الإسلامى ، والعمالة الفنية المدنية الأجنبية فى بلادنا الإسلامية . لأن الإسلام - كما يقولون « هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية . والنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً . ونحن بحاجة إلى مئات المراكز ، لفهم الإسلام ، ولاختراقه فى صدق ودهاء » !! .

وبعد عشرين عاماً من مؤتمر « كولورادو » ، تتحدث الكاثوليكية بذات اللهجة البروتستانتية ، فيصرح «المونسينيور جوزيبى برناردينى » بحضرة البابا يوحنا بولس الثانى - فى مجمع الأساقفة ، فيقول : « إن العالم

الإسلامى سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط .. وهو يبنى المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين فى الدول المسيحية ، بما فى ذلك روما عاصمة المسيحية . فكيف يمكننا ألا نرى فى ذلك برنامجاً واضحاً للتوسع ، وفتحاً جديداً » ؟ !.

وفى نفس التاريخ ، يتحدث الكاردينال « بول بوبار » - مساعد البابا ، ومسئول المجلس الفاتيكانى للثقافة - إلى صحيفة « الفيجارو » - الفرنسية - فيقول : « إن الإسلام يشكل تحدياً بالنسبة لأوروبا وللغرب عموماً . وإن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيراً ضليعاً لكى يلاحظ تفاوتاً متزايداً بين معدلات النمو السكانى فى أنحاء معينة من العالم . ففى البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكانى بشكل تدريجى ، بينما يحدث العكس فى البلدان الإسلامية النامية . وفى عهد المسيح يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد ، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجاً بشكل ما ؟ .. إن التحدى الذى يشكله الإسلام يكمن فى أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف ، فى حين أن المسيحيين فى أوروبا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع ، ويتناسون الصيام الذى يفرضه عليهم دينهم ، وفى الوقت نفسه ينبهرون بصيام المسلمين فى شهر رمضان »!..

أما الأرثوذكسية الأوروبية ، فإنها تعبر عن موقفها من الإسلام والمسلمين بالمقابر الجماعية فى البلقان والشيشان ؟ ! .

* بل إن الثقافة المدنية العلمانية التنويرية الغربية لم تختلف عن « الشعبية » و « اللاهوتية » فى هذا التصوير الشاذ للإسلام ومقدساته .فالشاعر الإيطالى « دانتى » (١٢٩٥-١٣٢١م) يضع رسول الإسلام فى الحفرة التاسعة فى ثامن حلقة من حلقات جهنم ، لأنه - بنظرة التنويرى : من أهل الشجار والنفاق ، الذين تقطعت أجسادهم فى سعير « الكوميديا الإلهية » !! .

أما « جوته » - الألمانى - (١٧٤٩-١٨٣٢م) فإن رسول الإسلام - عنده - « **قد نصب حول العرب غلافاً دينياً كئيباً ، وعــرف كــيـف يـحــجب عنهم الأمل فى أى تقــدم حقيقى** » !! .

وإذا كان هناك من لا يزال فى حاجة إلى أدلة على الآثار السلبية لهذه الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين فى تراث الثقافة الغربية ، فى نظرة الغرب المعاصر للآخر الإسلامى ، وفى التجليات التى نراها فى الإعلام الغربى . والدراسات الغربية ، وصناعة القرار للمشروع الغربى . فيكفى أن نقرأ للرئيس الأمريكى الأسبق « ريتشارد نيكسون » - فى كتابه [الفرصة السانحة] - « **إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصــبــحــوا ينظرون إلى كل المسلمين كـأعــداء ، ويتصــورون أن المسلمين شعوب غير متحضرة ، ودمويون ، وغير منطقيين ، وأن سبب اهتمامنا بهم هو أن بعض زعمائهم يسيطرون - بالمصادفة - على**

بعض الأماكن التى تحوى ثلثى النفط الموجود فى العالم ، وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة - حتى بالنسبة للصين الشيوعية - فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى عن العالم الإسلامى » !!

تلك هى صورة « الآخر الإسلامى » فى الثقافة الغربية - الشعبية .. واللاهوتية .. والمدنية التنويرية .. وقبلها رأينا صورة « الآخر المسيحى » - واليهودى - فى الثقافة الإسلامية .. بل وتبلغ الصورة فى العالم الإسلامى حد «الملهاة - المأساة » والأغلبية تعترف بالأقلية .. بينما العكس غير صحيح ؟ ! .

فمن - بعد هذه الصورة - الذى ينكر الآخر .. ويستثنيه .. ويستأصله ؟ .

ومن الذى ترى ثقافته العالم منتدى حضارات وثقافات وقوميات وشرائع وملل وديانات ، تؤمن بها وتنتمى إليها شعوب وأمم وجماعات ، أراد لها الله أن تظل دائماً وأبداً متنوعة ومختلفة ، ليكون التدافع الحضارى والثقافى تسابقاً على طريق الخيرات ؟ .. تتفاعل فيما هو مشترك إنسانى عام .. وتتمايز فى الهويات والثقافات .

سؤال موجه إلى الغرب .. والمتغربين .. وإلى الكَذَبة الذين احترفوا تكرار الأكاذيب حتى كادوا أن يضعوا الإسلام - إزاء هذه القضية - فى قفص الاتهام .

التخطيط لانهيار مصر

ونفتيتها !!

قبل أكثر من خمسين عاماً فى أربعينيات القرن العشرين - نشرت مجلة وزارة الدفاع الأمريكية « البنتاجون » - EXECUTIVE INTELLIGENCE RESARCH PROJECT مخطط المستشرق الصهيونى « برنارد لويس » لتفتيت العالم الإسلامى - من باكستان إلى المغرب - على أسس عرقية و«إثنية» ودينية ومذهبية ، وذلك حتى يزداد التشرذم فى هذا العالم - المتشرذم أصلاً - فتضاف إلى كياناته القطرية - التى تزيد على الخمسين - كيانات جديدة تزيد على الثلاثين لتتحول

كل تلك الكيانات - حسب تعبير « برنارد لويس » - إلى «برج ورقي ، ومجتمعات فسيفسائية أو مجتمعات الموزايك MOSAIC SOCIETY فيتحقق الأمن لإسرائيل لنصف قرن على الأقل » !

ولقد تحدث هذا المخطط عن تقسيم العراق إلى دويلات ثلاث :

١ - دولة كردية سنية فى الشمال .

٢ - دولة سنية عربية فى الوسط .

٣ - دولة شيعية عربية فى الجنوب .

وهو ما يجرى تنفيذه اليوم على أرض العراق - وتحدث هذا المخطط عن تقسيم السودان إلى :

١ - دولة زنجية مستقلة فى الجنوب .

٢ - ودولة عربية فى الشمال .

- وهو ما يجرى تنفيذه اليوم على أرض السودان .

وتحدث « برنارد لويس » عن تقسيم لبنان إلى خمس دويلات :

١ - دويلة مسيحية .

٢ - دويلة شيعية .

٣ - دويلة سنية .

٤ - دويلة درزية .

٥ - ودويلة علوية .

أما مصر فلقد خطط « لويس » تقسيمها إلى دولتين على الأقل !

١ - واحدة إسلامية .
٢ - والثانية قبطية - فى الجنوب - الصعيد .

وبعد سنوات من نشر مجلة « البنتاجون » لهذا المخطط بدأ تنفيذه فى حقبة الخمسينيات ، فشرعت إسرائيل فى العمل على « تثبيت وتقوية الميول الانعزالية للأقليات فى العالم العربى .. وتحريك هذه الأقليات لتدمير المجتمعات المستقرة ، وإذكاء النار فى مشاعر الأقليات المسيحية فى المنطقة ، **وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال » - كما جاء بالحرف فى عبارات « بن جوريون » بمذكرات « موشى شاريت »** .

وفيما يتعلق بمصر - التى نخصها بهذه الصفحات ..

ظهرت فى ذلك التاريخ - النصف الأول من الخمسينيات « جماعة الأمة القبطية » - التى تدعو إلى « تحرير مصر من الإسلام والمسلمين » !.

وبدأت موجات الهجرات القبطية إلى الخارج - وبالذات إلى أمريكا وكندا واستراليا .. موجة عقب قانون الإصلاح الزراعى بمصر سنة ١٩٥٢م ، وثانية بعد تمصير الشركات الأجنبية سنة ١٩٥٧م عقب هزيمة العدوان الثلاثى فى سنة ١٩٥٦م ، وثالثة عقب قوانين التاميم سنة ١٩٦١م ، ولقد غلب على هذه الهجرات روح الثأر والانتقام من مصر ثورة يوليو ، التى حرمت هؤلاء المهاجرين من الاستغلال الإقطاعى . ومن سيطرتهم - مع أنهم أقلية - على الشركات فى حقبة سيطرة

رأس المال الأجنبى المتحالف مع الاستعمار .. فالتقطت أجهزة الاستخبارات المعادية ، والدوائر الصهيونية كثيرين من هؤلاء المهاجرين ..

وتكونت - منذ ذلك التاريخ - بدايات التنظيمات القبطية المعادية لوحدة مصر الوطنية ولعروبتها وهويتها الحضارية الإسلامية .

فلما جاءت حقبة الثمانينيات - من القرن العشرين - ومع النجاح الذى حققه مخطط التفتيت على جبهة موارنة «المارونية السياسية» فى لبنان - أولئك الذين قالوا : « أمنا فرنسا ، ونحن غرب ، نعادى العروبة والإسلام » : تصاعدت آمال المخطط الامبريالى الصهيونى فى تفتيت مصر ..

فعلاوة على مشاركة عدد من الأقباط فى صفوف الموارنة بالحرب الأهلية اللبنانية: وجدنا « وثيقة استراتيجية إسرائيل فى الثمانينات » - التى نشرتها مجلة المنظمة الصهيونية «الاتجاهات» « كيفونيم » KIVANIM فى ١٤ فبراير ١٩٨٢م - **تقول : « إن مصر المفككة والمنقسمة إلى عناصر سلطوية كثيرة - وليس على غرار ما هو اليوم - لا تشكل أى تهديد لإسرائيل ، وإنما ضمانة للأمن والسلام لوقت طويل .. وهذا فى متناول أيدينا اليوم .. »!.**

بل وتحدثت هذه الوثيقة عن أن تفتيت مصر هو مفتاح تفتيت كل بلاد العروبة والإسلام ، فقالت

بالحرف - : « إن دولاً مثل ليبيا والسودان والدول الأبعد منهما لن تبقى طويلاً على صورتها الحالية ، بل ستقتفى أثر مصر فى انهيارها وتفتتها ، فمتى تفتتت مصر تفتت الباقون .. إن رؤية دولة قبطية مسيحية فى صعيد مصر ، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية - مصرية ، لا سلطة مركزية كما هو الوضع الآن ، هو مفتاح هذا التطور التاريخى الذى أخرته معاهدة السلام ، لكنه لا يبدو مستبعداً فى المدى الطويل »!

فنحن ، إذن ، أمام مخطط معلن « لانهيار مصر وتفتيتها » ولسنا أمام « مؤامرة سرية » ولا « هوس بنظرية وذهنية المؤامرة » .. وفى ضوء هذا المخطط علينا أن نرى « خارطة » كل ما يقال ويطبق اليوم باسم الأقليات .

من ذلك الذى أعلن - منذ سنوات - عن قيام حكومة قبطية فى المنفى - فى ألمانيا - كبالون اختبار ، وسابقة وضعت « العنوان » و « الهدف » فى دوائر الإعلام ! ولقد جرت الاستهانة بهذا الأمر يومئذ ، وقيل : إن صاحب هذا الإعلان مجرد « مجنون » - وهو الوصف التبريرى الذى سبق وأطلقته إسرائيل على من قام بجريمة حرق المسجد الأقصى سنة ١٩٦٩م :

إلى هؤلاء الذين يسعون بحماسة يسمونها « روح الاستشهاد » : لإحياء اللغة القبطية ، لا كلغة أثارية وتاريخية لأهل الاختصاص، وإنما لتحل محل اللغة القومية - العربية !

ويصاحب هذه الجهود - التى تبرز ويغض عنها الطرف - التحول فى أسماء المواليد عن الأسماء المصرية العربية إلى الأسماء الأوروبية الغربية .. فبدلاً من ميخائيل يسمى « مايكل » ! .. وبدلاً من بطرس يسمى « بيتر » ! .. وبدلاً من مريم تسمى « ميرى » ! .. حتى أصبح اسم مريم لا يسمى به غير المسلمين ! .. بل وشيوع عبارات من مثل « الشعب القبطى » و « الطائفة » بدلاً من « الشعب المصرى » ! .

إلى تزايد نفوذ أقباط المهجر على كنيستهم الأرثوذكسية .. فتعداد هؤلاء المهاجرين ، وإمكاناتهم المادية والأدبية ، ونفوذهم وحركتهم وعلاقاتهم مع ولائهم للبلاد التى يحملون جنسيتها ، وتسخيرهم أحياناً لخدمة المصالح الاستعمارية لتلك البلاد - وخاصة فى أمريكا - .. وكذلك زيادة الفروع الخارجية لهذه الكنيسة ، ومن ثم ثقل ونفوذ هذه الفروع .. كل هذا الجديد قد أحدث تطوراً نوعياً وكيفياً فى حسابات وتوجهات الكنيسة ، التى اتجهت غرباً أكثر فأكثر ، بعد رجحان كفة رعيتها الغربية على رعيتها الداخلية الوطنية .. ولقد كان دخولها فى « مجلس الكنائس العالمى » الذى أقامته المخابرات الأمريكية ، إبان الحرب الباردة ، لخدمة الهيمنة الأمريكية - بعد أن ظلت هذه الكنيسة رافضة دخوله لسنوات طويلة كان ذلك إعلاناً عن هذا التحول فى التوجهات .. حتى لقد أصبح بعض الغيورين عليها - حتى من أبنائها -

يخشون من اهتزاز طابعها الوطنى التاريخى لحساب الغرب والتغريب !

بل لقد استغل هذا « التوجه نحو الغرب » تعاظم الصحوة الدينية الإسلامية ، لإخافة الأقباط من المشروع الحضارى الإسلامى ، وتبرير الاحتماء بالعلمانية الغربية والنموذج الغربى فى التقدم .. وذلك بدلاً من إدراك حقيقة أن الصحوة الدينية هى ظاهرة عالمية ، فى كل الديانات ، حتى الديانات الوضعية - من الهندوسية إلى الكنفشيوسية .

وأنها قد تعاظمت مع إفلاس النماذج الغربية والتغريبية التى فرضت على العالم ، وتمت تجربتها على امتداد قرنين فلم تحقق للإنسانية نهضة حقة ، ولا تقدماً حقيقياً .. بدلاً من ذلك ، وبدلاً من الإسهام النصرانى فى هذه الصحوة الإسلامية ، بمنظومة القيم الإيمانية المشتركة ، والسمات المشتركة فى الوطنية والقومية والثقافة الواحدة والحضارة الواحدة ، بدلاً من التوجه شرقاً ، انطلاقاً من حقائق هذه الشركة الحضارية التاريخية والدينية ، تم التخويف من الصحوة الدينية الإسلامية بالتركيز فقط على قسمة الغلو الإسلامى - لتنمية الطائفية ، والتوجه نحو الغرب والتغريب ! - فتخلقت المشكلة التى لا مشكلة سواها بين المتوجهين غرباً - حتى ولو كانوا مسلمى الأسماء والآباء - وبين الأمة التى تبحث لنهضتها عن خيار نهضوى نابع من حضارتها وهويتها العربية الإسلامية .

إلى مراكز « البحث » - فى داخل مصر - تلك التى استقطبت

غلاة العلمانيين ، وسواقط الماركسيين ، والتى تمولها - بسخاء يسيل اللعاب - الدوائر والمؤسسات الأجنبية ، لتعد « الملفات » عن ما يسمى باضطهاد الأقباط وهموم الأقباط ونظام الأقباط .. تلك « الملفات » التى تفتحها وتستخدمها الدوائر المعادية لوحدة مصر فى الخارج ..

حتى لقد وصل الأمر بأحد هذه المراكز « البحثية » - مركز ابن خلدون - مع الاعتذار لاسم فقيه الإسلام ابن خلدون ! - أن يدعو صاحبه - د . سعد إبراهيم - إلى تنفيذ المخطط الامبريالى الصهيونى لتفتيت العالم العربى - أكثر مما فتتته اتفاقية « سيكس بيكو » سنة ١٩١٦م - فيطالب بإقامة كيانات « فيدرالية » تحقق « تعددية سياسية » - نعم تعددية سياسية - لكل الأقليات فى الوطن العربى « لأن المجتمعات التى تتسم بالتعددية الإثنية فى الوقت الحالى ، ينبغى أن تكون متعددة من الناحية السياسية أيضاً .. » !!(١) .

وحتى قانون « الاضطهاد الدينى » - الذى أصدره الكونجرس الأمريكى فى أكتوبر سنة ١٩٩٨م - والذى وضعت تقارير المتابعة المنفذة له مصر - وعدداً من الدول العربية والإسلامية - على قائمة الدول التى تضطهد الأقليات ، والمرشحة لعقاب الأمريكان ! .

---

(١) « التعددية الإثنية فى الوطن العربى » ص ٢١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م

وأخيراً .. وليس آخراً - صناعة الزعامات الجذابة « الكاريزمية » - مع الحملات الإعلامية التى تضفى الطابع الطائفى على توترات إجرامية أو مشكلات اجتماعية .. أو تبالغ فى أحداث لا يخلو من مثلها وأكثر منها مجتمع من المجتمعات التى تتعدد فيها الديانات والمذهبيات .

وهكذا نجد أنفسنا أمام خيوط عنكبوتية ، تبدأ جميعها من الغرب ، لتعود فتخدم الغرب اللاعب الأول بورقة الأقليات - كل الأقليات - وبصرف النظر عن ديانات هذه الأقليات .

وغنى عن البيان ، أن الغرب هنا ليس الإنسان الغربى ، ولا العلم الغربى ، وإنما هو « المشروع الغربى » الذى يعلن أن الإسلام هو العدو الذى حل محل امبراطورية الشر الشيوعية ، والذى يريد عولمة نموذجه الحضارى - من الاقتصاد إلى القيم - بتهميش النماذج الحضارية غير الغربية .

وغنى عن البيان أيضاً ، أن هذا المشروع الغربى لا رابطة بينه وبين المسيحية الشرقية - ومنها الأرثوذكسية المصرية - فهذه الأرثوذكسية ، فضلاً عن أنها جزء من نسيجنا الوطنى والقومى والحضارى والثقافى والقيمى .

فإن مسيحية الغرب لا تعترف بمسيحيتها ؟ ! .. وإنما يتخذ الغرب الاستعمارى - والصهيونية - منها « ورقة » يلعب بها فى معركته ضد الاستقلال الحضارى للشرق ، واليقظة القومية لأممه وشعوبه .. فالإسلام والمسيحية الشرقية فى خندق وطنى

وقومى وحضارى واحد تجاه المشروع الغربى - الامبريالى الصهيونى - بل إن هذه المسيحية الشرقية هى والإسلام وحدة واحدة فى « النسق الأخلاقى » و « منظومة القيم الإيمانية » .. وهى ، هذه المنظومة القيمية ، على العكس والنقيض من منظومة القيم الغربية ، التى لم تعد مسيحية ، والتى ذهبت فى الوضعية والمادية والانحلال حداً لا يرضاه أى دين من الأديان ، سماوياً كان هذا الدين أو وضعياً !

ولقد أدرك العقلاء من زعماء النهضة الإسلامية هذه الحقيقة ، منذ أن شرع الغرب بمد حبال وشباك الغواية لاصطياد الأقليات المسيحية الشرقية ، كجزء من حربه للشرق والإسلام ، فقال عبد الرحمن الكواكبى « ١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ/ ١٨٥٤ - ١٩٠٢م » لمسيحيى الشرق : « أليس مطلق العربى أخف استحقاراً لأخيه من الغربى ؟ هذا الغربى قد أصبح مادياً لا دين له غير الكسب ، فما تظاهره مع بعضنا بالإخاء الدينى إلا مخادعة وكذبة ، وما دعواه الدين فى الشرق إلا كما يغرد الصياد وراء الشباك » ![1].

وقال ميشيل عفلق « ١٣٢٨-١٤٠٩هـ / ١٩١٠-١٩٨٩م » : « إن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم سوف يعرفون أن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها ويحرصوا

---

(١) « الأعمال الكاملة » ص ٢٠٨ دراسة وتحقيق : د . محمود عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م .

عليها حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم فلا يوجد عربي غير مسلم ! ، فالإسلام هو تاريخنا ، وهو بطولاتنا ، وهو لغتنا ، وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون .. إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم .. وبهذا المعنى لا يوجد عربي غير مسلم ، إذا كان هذا العربي صادق العروبة ، وإذا كان متجرداً من الأهواء .. ولئن كان عجبي شديداً للمسلم الذي لا يحب العرب ، فعجبي أشد للعربي الذي لا يحب الإسلام »[٢] . فالمسيحية الشرقية جزء من « ذاتنا »

الوطنية والقومية والحضارية .. بينما الغرب هو « الآخر » بالنسبة لنا جميعاً ، مسلمين ومسيحيين » .

إن تعداد المسلمين قد قارب ربع البشرية ، وليس هناك عاقل يطمع في إحلال الإسلام ، محل النصرانية ، بإدخال الأقلية النصرانية في الإسلام .. فالأصل والقانون ، في الإسلام ، هو التعدد في الشرائع والملل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا

---

(٢) « الكتابات السياسية الكاملة » ج٣ ص ٢٣ ، ٢٦٩ ، ج٥ ص ٦٨ - طبعة بغداد سنة ١٩٨٧ ، ١٩٨٨م .

الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾[1].

ومن الجنون أن تتصور الأقلية النصرانية إمكانية تفريغ الوطن من المسلمين ، الذين يكوّنون ٩٥٪ من سكانه .. وحرام أن ينخدع البعض بغواية الغرب ، التى سبق ومارستها الامبراطوريات الاستعمارية التى سبقت أمريكا إلى اللعب بورقة الأقليات من روسيا القيصرية الأرثوذكسية .. إلى فرنسا الكاثوليكية .. وحتى انجلترا الإنجيلية .. فلقد طويت صفحات هذه الامبراطوريات ، وذهب عملاؤها إلى مذبلة التاريخ !

وبقى الإسلام الحضارى صيغة نهضوية لكل شعوب الشرق ، التى تستيقظ اليوم متخذة من نموذجه الحضارى الشرقى سبيلها إلى التقدم والنهوض .

فالمشروع الإسلامى الإيمانى هو الضمان لازدهار الإيمان المسيحى فى الحضارة الشرقية .. بينما المشروع الغربى الوضعى والمادى والعلمانى هو مقبرة كل ألوان الإيمان الدينى .

وقديماً ، ومنذ سنة ٧هـ ، ٦٢٨م ، قال حاطب بن أبى بلتعة « ٣٥ق . هـ - ٣٠هـ / ٥٨٦-٦٥٠م » للمقوقس - عظيم القبط فى مصر - عندما حمل إليه رسالة رسول الإسلام ﷺ : « إن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه ، وهو الإسلام ، الكافى به الله فَقْد ما سواه ، وما بشارة موسى

---

(١) المائدة : ٤٨ .

بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به »[1].

ولقد كان حاطب - فى ذلك - يصدر عن منهاج النبوة ، الذى تعلم منه قول رسول الله ﷺ عن المسيح عليه السلام ، « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة ، الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وليس بيننا نبى »[2].

فحرام أن يفرق الغرب المادى الاستعمارى ما جمعته منظومة القيم الإيمانية الموحدة لأتباع أحمد والمسيح ، عليهما السلام وما وحدته الثقافة واللغة والوطنية والقومية والحضارية ، عبر تاريخنا الطويل .. وخصوصاً عندما نكون جميعاً ركاب سفينة الوطن الواحد ، الذى يعيش فينا كما نعيش فيه .

إن الوطن هو السفينة التى لا مكان لأى من ركابها خارج حرمها وأمنها وأمانها .. وإذا خرقها الأعداء أو العملاء أو الدهماء غرق جميع من عليها بلا استثناء ، وغرقت معهم كل العقائد والمذاهب والمصالح والطموحات ، ولقد علمنا الإسلام منهاج وقاية الأمة من نزق القلة ، عندما قال القرآن الكريم ﴿ واتقوا

---

(١) « فتوح مصر وأخبارها » لابن عبد الحكم - ص ٤٦ - طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد .

فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾[1].

وعندما رسم رسول الله ﷺ هذا المنهاج فى « حديث السفينة » - الذى رواه النعمان بن بشير - فقال : قال رسول الله ﷺ [مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فى البحر ، فأصاب بعضهم أسفلها وأصاب بعضهم أعلاها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا : لو خرقنا فى نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا ؟ فإن تركوهم وأمرهم ، هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً][2].

وإذا كان الضرب على الأيدى - أيدى الذى يحاولون خرق السفينة - هو شأن القابضين على سلطان الدولة والقائمين على تطبيق الدستور والقانون .. فإن مهمة الفكر هى تمييز الخبيث من الطيب فى عالم الأفكار والتوجهات ، وتبيان الحقائق من الأكاذيب فى الدعاوى والادعاءات .. فهذا هو الميثاق الذى أخذه الله على أهل العلم ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾[1].

---

(١) الأنفال : ٢٥ .

(٢) رواه البخارى والترمذى والإمام أحمد .

إن حرية الوطن رهن بحرية جميع أبنائه ، من كل الطبقات والديانات والمذهبيات ، وسيظل العدل منقوصاً إذا ما حاق الظلم بأحد من المواطنين .. ولن تتحقق حرية الكاتب والمفكر إذا كان فى وطنه من يرسفون فى الأغلال والأصفاد . وإذا كان رسول الله ﷺ ينبئنا - ويحذرنا - من أن ذمة الله بريئة من أى جماعة - صغيرة أو كبيرة - تبيت شبعى وفيهم امرؤ واحد جائع [**أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى**][2] .

فما بال الذين يرضون بأن يقع الظلم على جماعة من الجماعات ، سواء أكانت أقلية تظلمها الأغلبية أو أغلبية تستعدى عليها الأقلية الظلمة والطغاة !!

إن الإسلام الذى يعلمنا وجوب العدل حتى مع من نكره من الأعداء ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾[3] .

إن هذا الإسلام هو الذى حرر النصرانية المصرية ، وكنيستها فأنقذهما من الإبادة الروحانية المحققة ، حتى نستطيع أن

---

(١) آل عمران : ١٨٧ .

(٢) رواه الإمام أحمد .

(٣) المائدة : ٨ .

نقول بأعلى الأصوات : إن النصرانية المصرية ، ومعها كنائسها ومؤسساتها ورعيتها هى هبة الإسلام .

وإذا كان الإسلام قد جاء إلى مصر من شبه الجزيرة العربية ، فإن النصرانية قد وفدت إلى مصر من فلسطين ، والأقدم منهما معاً - فى مصر - هى عبادة العجل « أبيس » ، وإذا كانت « الدولة الإسلامية » قد جاءت إلى مصر مع الفتح الإسلامى فهى قد حلت محل الدولة الرومانية الاستعمارية التى قهرت أهل مصر ونصرانيتهم ، ولم تحل « الدولة » الإسلامية محل نصرانية مصرية .. فليس فى النصرانية « دولة » .. ومصر لم يحكمها نصرانى من أهلها عبر التاريخ ! .. وإنما ظلت النصرانية المصرية عقيدة مطاردة وهاربة حتى جاء الإسلام ودولته فأمنت لأول مرة فى تاريخها ! .

وإذا كانت العربية قد وفدت إلى مصر مع الفتح الإسلامى ، فلقد حلت - باختيار أهلها - محل اللغة التى قهرها الاستعمار الرومانى حتى كتبت بالحروف اليونانية .

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد وفدت إلى مصر قبل أربعة عشر قرناً ، فلقد حلت محل القانون « الرومانى والقانون الوافد للدولة الغازية المستعمرة .. قانون « جستنيان » « ٥٢٧-٥٦٥م » - الذى أحرق فى الإسكندرية وحدها - فى ليلة واحدة ٢٠٠,٠٠٠ من نصارى مصر .. بينما هرب الناجون

من الحرق إلى الصحراء !! ولم تحل الشريعة الإسلامية محل قانون نصرانى .

ولأن الإسلام قد حرر النصرانية المصرية ، ووضع عن أقباط مصر الأغلال التى كبلتهم وقهرت ثقافتهم ولغتهم وعقيدتهم وحضارتهم لعدة قرون - قرابة الألف عام من فتح الإسكندر الأكبر « ٣٥٦-٣٢٤ ق .م » فى القرن الرابع قبل الميلاد - إلى الفتح الإسلامى - فى القرن السابع للميلاد - فلقد اندمجت مصر فى الإسلام والعربية كما لم يندمج مجتمع من المجتمعات التى دخلت الإسلام .. فدخلت أغلبية أهلها فى الإسلام : العقيدة والشريعة والقيم والفقه واللغة والثقافة والحضارة ودخلت الأقلية التى بقيت على نصرانيتها فى الإسلام : القيم والثقافة واللغة والحضارة والقانون ، فكانت « السبيكة المصرية » الواحدة ، التى أسهمت فى الحضارة الإسلامية ، بعد أن استوعبت المواريث الحضارية الضاربة فى عمق أعماق التاريخ فغدت هذه الحضارة الإسلامية بعبارة الفقيه القانونى والقاضى العادل الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا « ١٣١٣-١٣٩١هـ / ١٨٩٥-١٩٧١م » - « الميراث الحلال للمسلمين والمسيحيين المقيمين فى الشرق ، فتاريخ الجميع مشترك ، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية » - [1] . فحرام على

---

(١) عبد الرزاق السنهورى « من خلال أوراقه الخاصة » ص ١١٨ ، ١٤٨ - جامعة القاهرة سنة ١٩٨٨م

ورثة هذا الميراث العظيم والنفيس والفريد ، أن يفرطوا فيه تفريط السفهاء الذين لا يعرفون قيمته ونفاسة وعظمة وتفرد ما أورثهم الآباء والأجداد .

وإذا كانت مهمة الفكر هى إيقاظ العقول لتأليف القلوب - بالحقائق لا بالأكاذيب - فليس كصراحة الحقائق سبيلاً لإيقاظ العقول .. وليس كالعقول اليقظة سبيلاً لتأليف القلوب المخلصة لسفينة الوطن ، الذى يعيش فينا كما نعيش فيه .. وتلك هى غاية هذه الصفحات ، التى نسأل الله أن ينفع بها ، إنه - سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب .

الانتماء الإسلامى والأقليات الدينية والقومية

يدعو الإسلام إلى أن يكون الانتماء إليه هو الجامع الأكبر ، الذى يحتضن كل دوائر الانتماء الفرعية ، والصغرى ، والجزئية دينية كانت أو ثقافية أو قومية .

وعلى حين يسقط الإسلام « العرق والجنس » من معايير ودوائر الانتماء .. فإنه لا يقف - كدائرة انتماء - للأمة عند حدود المتدينين بالإسلام فى عالم الإسلام ، وإنما يشمل ، كذلك ،

الأقليات غير المسلمة ، التى انصهرت قومياً وحضارياً ووطنياً مع الأغلبيات المسلمة .. فإذا كان هذا الانتماء الإسلامى يمثل بالنسبة للمسلم : عقيدة وشريعة ، وقيما ، وحضارة ، وقومية ، ووطنية ، وثقافة ، وتاريخاً ، وتراثا- فى الفكر وفى القانون - فباستثناء « العقائد » الدينية الخاصة بشرائع هذه الأقليات ، فإن الإسلام قد مثل ويمثل الانتماء المشترك والجامع لشعوب الأمة وقومياتها ، على اختلاف العقائد الدينية والشعائر العبادية بين أبنائها .. ولقد ساعد على تمثيل الإسلام لجامع الانتماء الموحد ، أن النصرانية - التى يتدين بها أغلب الأقليات الدينية فى العالم الإسلامى - هى شريعة لخلاص الروح ، همها الأول والأوحد مملكة السماء ، ومن ثم فليس لديها بديل فى الانتماء الوطنى والقومى والأسمى يميز أبناءها عن أن يكون انتماؤهم الحضارى والقومى والثقافى والوطنى هو نفس انتماء المسلمين .. فالجامع الإسلامى ، فى الانتماء ، جامع موحِّد .. ليس فقط للدوائر الوطنية والقومية والمِلِّيَّة .. وإنما أيضاً للأقليات غير المسلمة مع الأغلبيات المسلمة فى عالم الإسلام .

إن إيمان الإسلام بالتعددية ، كسنة من سنن الله فى الشرائع والأقوام والحضارات ، هو الذى ميز أمته وعالمه وداره بالتعددية

فى الديانات والأقوام .. فلأنه أعلن أن ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ عاشت فى دياره الأقليات غير المسلمة ، وحفظ لها أمانها وأمنها على عقائدها ، كفريضة إسلامية .. وليس مجرد « تسامح » و « حق » من الحقوق .

ولأن المنهاج الإسلامى قد حرم على « القوميات » عصبيات الجاهلية ، ووقف بسماتها عند الدوائر اللغوية ، ولم يجعلها « فلسفات .. ومذاهب » تناقض أو تنافس منهاج الإسلام ، فإنه قد حال بين هذه « القوميات » وبين الطغيان الذى ينفى وجود الأقليات القومية فى الدوائر القومية الكبرى .. فعاشت الأقوام - كأقليات - والملل - كأقليات - فى المجتمع الإسلامى ، على النحو الذى كاد أن يتفرد به عالم الإسلام .

وإذا كان جامع الانتماء الإسلامى هو المظلة التى تظلل كل الأقوام فى عالم الإسلام ، أغلبية كانوا أم أقلية .. فإن معايير « الولاء .. والبراء » و « الموالاة .. والمعاداة » - فضلاً عن جامع الانتماء الحضارى والثقافى والقومى والوطنى والقانونى - جميعها هى روابط تشد وتجمع الأقليات غير المسلمة إلى الأغلبيات المسلمة فى ديار الإسلام .

يقول الله ، سبحانه وتعالى فى تحديد معايير « الولاء .. والبراء » بين المسلمين وغيرهم : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم * لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم

الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾[1].

وانطلاقاً من هذه الآيات المحكمة ، فإن المواطنين من أبناء الأقليات الدينية الذين يعيشون مع الأغلبية المسلمة ، ويشاركونهم الانتماء للوطن ، والولاء له ، هم شركاء فى المواطنة ، لهم « البر والعدل » ، فريضة من الله فرضها على الأغلبية المسلمة .

وإذا كان الإسلام قد جعل من التعددية فى الشرائع الدينية سنة من سنن الله فى الاجتماع الدينى ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾**[2].

فإن دستور دولة الإسلام الأولى - فى المدينة - على عهد رسول الله ﷺ قد قرر التمييز بين « أمة » - جماعة الدين ، وبين « أمة » - جماعة - الرعية السياسية - رعية المواطنة - .. فحرية التدين تحدد خطوط الجماعات المختلفة فى الدين ، على حين تجمعها جميعاً رابطة المواطنة المشتركة والرعية السياسية الواحدة والجوامع الحضارية والقومية والوطنية فى الدولة الواحدة .. فهناك نوعان من « الموالاة » :

---

(١) الممتحنة : ٧-٩ .
(٢) المائدة : ٤٨ .

(أ) موالاة فى الدين بين أهل كل دين ، تظهر فى المناصب والتنظيمات ذات الطبيعة والشروط والوظائف الدينية ، والتى ترعى الشئون الدينية لأهل كل دين ، وفيها لا « ولاية » لغيرهم عليهم ، بصرف النظر عن القلة والكثرة العددية لهذه الجماعات والملل الدينية .

(ب) وموالاة فى الشئون العامة للدولة المشتركة ، تظهر فى المرجعية التى تعبر عن هوية الدولة ورسالتها .. وهذه المرجعية والهوية والرسالة تتحدد تبعاً لأغلبية المواطنين ، ولشمولية الإسلام « للدولة » مع « الدين » - وهى خصيصة تميز بها عن النصرانية ، تلك التى وقفت رسالتها عند خلاص الروح ومملكة السماء ، تاركة ما لقيصر لقيصر وما لله لله - وهذه الإسلامية لمرجعية الدولة وهويتها ورسالتها لا تعنى انتقاصاً من المساواة فى الحقوق أو تمييزاً فى الواجبات الحياتية بين أبناء كل الديانات .

وعن هذه الحقيقة « الإسلامية - الدستورية » جاء فى « دستور » دولة المدينة - « الصحيفة .. الكتاب » - الذى حكم علاقات الرعية بعضها ببعض ، وعلاقاتها بولاة الأمر ، فى دولة الإسلام الأولى : « .. وأن يهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم .. وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم » . فتقررت - فى هذه المواد - المساواة فى الحقوق والواجبات .

ثم تقررت إسلامية المرجعية فى هوية الدولة ورسالتها ، بالنص على : « .. وأنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله »[1].

والأمر الذى يجعل من إسلامية المرجعية فى هوية الدولة ورسالتها أمراً لا ينتقص من حقوق المواطنة لغير المسلمين ، فى الدولة ذات الأغلبية الإسلامية ، أن « إسلامية الدولة » ، من حيث « إسلامية قانونها » هو مطلب دينى إسلامى ، وفريضة شرعية إسلامية ، وتكليف إلهى للمسلمين ، لا يقابله مطلب نصرانى للنصرانية .. فالنصرانية التى لم تأت بشريعة للدولة والسياسة والاقتصاد وشئون العمران الدنيوى ، والتى تركت ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، لا يضيرها ولا ينتقص منها ولا من حقوق أبنائها إسلامية « قيصر » .. الدولة ، لأنها فى كل الحالات قابلة بـ « قانون » ينظم العلاقات فى الدولة ، فإذا كان هذا القانون إسلامياً ، يعبر عن الهوية الإسلامية للأمة ، فإنه لا يمثل انتقاصاً من النصرانية ، ولا بديلاً عنها ، فضلاً عن أنه - مع عدله فى كل الرعية - هو جزء من الاعتقاد الدينى للأغلبية التى تعايشها وتواطنها .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ص ١٥-٢١ جمع وتحقيق د. محمد حميد الدين الحيدر آبادى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م .

إن تحكيم الشريعة الإسلامية لا ينتقص من نصرانية الأقليات النصرانية فى المجتمعات الإسلامية ، بينما غياب هذه الشريعة هو قطع لإحدى رئتى الإسلام وكسر لإحدى ساقيه ، ينتقص من إيمان المؤمنين به .. وذلك فضلاً عن أن تطبيق هذه الشريعة يجعل من الحفاظ على حقوق الأقليات النصرانية في المواطنة ديناً يتدين به المسلمون وليس مجرد تسامح يمنح عند الرضا ويمنع عند ضيق الصدور .

ولقد أكد هذه الحقيقة ، حقيقة قيام المساواة فى حقوق وواجبات المواطنة ، بين الأغلبية المسلمة وبين الأقليات الكتابية - « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » - مع « إسلامية الدولة » - فى هويتها ورسالتها وحضارتها وثقافتها - أن هذه الإسلامية لم تقم كبديل عن « نصرانية الدولة » حتى فى المرحلة التى سبقت فتوحات الإسلام وقيام دولته الإسلامية .. فالنصرانية الشرقية - والتى هى دين لا دولة - قد ظلت ديانة مضطهدة فى الشرق ، حتى جاء الإسلام فأمَّن أهلها لأول مرة فى تاريخهم النصرانى ؟ ! . فدولة الإسلام كانت ، منذ النشأة ، بديلاً لدولة الروم البيزنطيين المستعمرين ، ولم تكن بديلاً لدولة نصرانية وطنية شرقية ، ولذلك كانت تحريراً للنصارى وتأميناً للنصرانية ، ولم تكن انتقاصاً لحق من حقوقهما .

ولقد بلغ الإسلام فى التأسيس لوحدة الأمة فى المواطنة ، مع تعدد دياناتها ، أنه شرع لتعدد الديانات فى الأسرة الواحدة - وهى لبنة الأمة والشعب - .. فبزواج المسلم من الكتابية ، يكون للأولاد المسلمين أم كتابية وأخوال كتابيون ، وأب مسلم وأعمام مسلمون، الأمر الذى يؤسس وحدة الأمة بدياناتها المتعددة على التعددية التى قررها الإسلام فى لبنات الأساس.

وإذا كانت سنة « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » قد مثلت عنواناً على تراث من المبادىء والتشريعات والممارسات ضمنت العدل والمساواة بين أهل الديانات المتعددة فى دولة الإسلام ، حتى لقد انفردت حضارة الإسلام بتجسيدها لهذه التعددية دون الحضارات الأخرى ، فإن الفكر الإسلامى والممارسة الإسلامية قد أكدا على أن إسلامية الدولة - فى الهوية والمرجعية والرسالة الحضارية - فضلاً عن أنها حق من حقوق الأغلبية المسلمة فى أن تحكم بالقانون الذى تريده - والذى لا يخل بالعدل والمساواة بالنسبة للأقليات - .. إن هذا الفكر وهذه الممارسة التاريخية قد ميزا بين « الولايات » التى فيها « رسالة دينية إسلامية » - والتى من الطبيعى أن يليها المسلم - وبين غيرها - مما يتساوى فى ولايتها كل المواطنين .

* فعندما نكون بصدد تكوين هيئة للاجتهاد الإسلامى فى الشريعة الإسلامية والقانون الإسلامى ، فلابد من اشتراط الإسلام فى أهل هذا الاجتهاد .. وعندما

نكون بصدد خبرات أهل الفكر والرأى فى الشئون الحياتية ، فلا مجال للتمييز بين عقائد أهل الرأى هؤلاء .

* وعندما يكون القاضى مجتهداً فى الفقه الإسلامى ، فلابد وأن يكون مسلماً .. أما إذا كان منفذاً للقانون - كما هو حال الكثيرين الآن - فلا مجال للتمييز .

* وعندما تكون لرئيس الدولة الإسلامية ولايات دينية - رغم كونه حاكماً مدنياً - مثل إمامته للأمة فى الصلاة - وقيادته الدعوة إلى الإسلام .. وتكليفه بحراسة الدين .. وبسياسة الدنيا بالدين .. وبالجهاد فى سبيل نصرة الإسلام - إلى آخر الولايات الدينية لمن يتولى « الإمامة العظمى » فى الدولة الإسلامية - فإننا تكون أمام « شروط » فى رأس الدولة لا تتحقق إلا إذا كان مسلماً .. وحجب غير المسلم عن هذه الولايات ، ذات الرسالة الإسلامية ، إنما يكون لغيبة شروط لابد منها فيمن يتولاها .. وليس انتقاصا من المساواة فى المواطنة .. كالحال مع المواطن الذى لم تجتمع فيه شروط منصب من المناصب ، فإن ذلك لا ينتقص من حقوقه فى المواطنة الكاملة ، وإنما النقص قائم فى شروط هذا المنصب بالذات .

* وكذلك الحال مع الولايات ذات « الرسالة النصرانية » بالنسبة للنصارى ، لا يتولاها إلا نصرانى ، فشروطها لا تتحقق فى غيره .. ولا يعنى هذا انتقاصاً من حقوق المواطنة لغير النصارى .

إن « الدولة » و « ولاياتها » ليست « شريعة نصرانية » ، حتى يكون تولى النصرانى لهذه الولايات جزءاً من التدين بدين النصرانية .. بينما « الدولة » « شريعة إسلامية » ، يطلبها المسلم استكمالاً لإسلامه ، ففى ولايتها بعد دينى إسلامى .

وإذا كان شاذاً إقامة «الوحدة الوطنية» بين أبناء الديانات المختلفة ، مع الانتقاص من دين الأقلية ، فأكثر شذوذاً بناء هذه « الوحدة الوطنية » على أساس من استبعاد الشريعة الإسلامية ، التى تمثل إحدى رئتى الإسلام ، وبغيرها لا يكتمل للأغلبية دين ؟ ! .

ذلك هو موقفنا من الأقليات غير المسلمة فى المجتمعات الإسلامية .. وعَتْهُ الدعوة الإسلامية على مر تاريخها .. وجسدته الممارسات الإسلامية حضارة تميزت بالتعددية والتعايش بين الأديان .. ووجد مكانه فى أدبيات الحركة الإسلامية المعاصرة ، فكتب فيه الإمام البنا الكثير ، من مثل قوله : « إن الأقلية غير المسلمة ، من أبناء هذا الوطن ، تعلم تمام العلم كيف تجد الطمأنينة والأمن والعدالة والمساواة التامة فى كل تعاليم الدين الإسلامى وأحكامه .. وهذا التاريخ الطويل العريض للصلة الطيبة الكريمة بين أبناء هذا الوطن جميعاً - مسلمين وغير مسلمين - يكفينا مئونة الإفاضة والإسراف ، فإن من الجميل حقاً أن نسجل لهؤلاء المواطنين الكرام أنهم يقدرون هذه المعانى

فى كل المناسبات ، ويعتبرون الإسلام معنى من معانى قوميتهم ، وإن لم تكن أحكامه وتعاليمه من عقيدتهم[1] .. ويخطىء من يظن أننا دعاة تفريق عنصرى بين طبقات الأمة ، فنحن نعلم أن الإسلام عنى أدق العناية باحترام الرابطة الإنسانية العامة بين بنى الإنسان فى مثل قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾[2] . كما أنه جاء لخير الناس جميعاً ورحمة من الله للعالمين .

ودين هذه مهمته أبعد الأديان عن تفريق القلوب وإيغار الصدور ، وبهذا جاء القرآن مثبتاً لهذه الوحدة مشيداً بها فى مثل قوله تعالى : ﴿ **لا نفرق بين أحد من رسله** ﴾[3] . وقد حرم الإسلام الاعتداء حتى فى حالات الغضب والخصومة فقال تعالى : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾[4] .

---

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا - رسالة : مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى - ص١٩٦ ، ١٩٧ . طبعة دار الشهاب - القاهرة .

(٢) الحجرات : ١٣ .

(٣) البقرة : ٢٨٥ .

(٤) المائدة : ٨ .

وأوصى بالبر والإحسان بين المواطنين وإن اختلفت عقائدهم وأديانهم ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ﴾[1].

كما أوصى بإنصاف الذميين وحسن معاملتهم: لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

نعلم كل هذا، فلا ندعو إلى فرقة عنصرية، ولا إلى عصبية طائفية .. ولكننا إلى جانب هذا لا نشترى هذه الوحدة بإيماننا، ولا نساوم فى سبيلها على عقيدتنا، ولا نهدر من أجلها مصالح المسلمين، وإنما نشتريها بالحق والإنصاف والعدالة وكفى. فمن حاول غير ذلك أوقفناه عند حده، وأبنّا له خطأ ما ذهب إليه [﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[2]][3].

هذا هو موقفنا من الأقليات فى ديار الإسلام.

***

بل إننا لا نطلب للأقليات المسلمة، فى المجتمعات ذات الأغلبية غير المسلمة، وفى الدول العلمانية، أكثر من هذا الذى يقرره الإسلام للأقليات غير المسلمة فى ديار الإسلام.

---

(١) الممتحنة: ٨.　　(٢) المنافقون: ٨.

(٣) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] - رسالة: إلى الشباب - ص٨٨، ٨٩.

فمع أن الإسلام « دين ودولة » .. فإننا لا نجد منطقاً لمن يطلب للأقليات المسلمة فى تلك المجتمعات إقامة « دولة الإسلام » هناك .. لكن المنطق والمطلب هو أن تتاح لهذه الأقليات إقامة « دين الإسلام » وأن تنص دساتير تلك الدول، وتضمن قوانينها - للأقليات المسلمة - :

* حرية الاعتقاد الدينى .. وحماية المعتقدات الإسلامية .
* وحرية إقامة الشعائر وأداء العبادات الإسلامية .. والتمكين للمسلمين من الوفاء بفرائض الدين .
* وحقوق إقامة فرائض الدين وشرائعه فى الأحوال الشخصية - من مثل قوانين الأسرة والتوارث .. وغيرها مما يتعلق بالحرمات الخاصة بالمسلمين - .
* وإعانتهم على التزام قواعد الحلال والحرام الدينى فى المطاعم والمشارب .
* وتمكينهم من تعليم أبنائهم قواعد دينهم .. وتيسير الثقافة والقيم والمثل الإسلامية لأبناء هذه الأقليات .

فمع الاحترام لمنطق الديمقراطية - فى حكم الأغلبية - تريد للأقليات ما تقتضيه التعددية من حقوق لمختلف فرقاء التعددية على النحو الذى ضمنه الإسلام للأقليات .

نريد تمكينهم من الالتزام « بدين الإسلام » فى الوقت الذى تحكمهم فيه « دول » لا تلتزم بالإسلام، كما يمكن الإسلام أبناء الأقليات غير المسلمة من إقامة « دينها » فى ظل « دولة الإسلام » .

حوار الأديان

هل هو حوار طرشان ؟!

فى الإسلام ، الحوار ليس مجرد فضيلة ، وإنما هو فريضة .. ذلك أن الإسلام يجعل التعددية ، فى كل ما عدا ومن عدا الذات الإلهية ، قانوناً وسنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل .

فالناس الذين خلقهم الله ، سبحانه وتعالى ، من نفس واحدة ، قد جعلهم شعوباً وقبائل ﴿ يا أيها الناس إنا

خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾[1]. وجعل اختلافهم فى الألسنة واللغات آية من آياته ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾[2].

فغدوا متعددين فى القوميات .. ثم هو، سبحانه قد شاء لهم التعددية فى المناهج، أى الحضارات والثقافات والعادات والتقاليد والأعراف .. وفى الشرائع، أى الملل والديانات ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾[3].. وقضت سنته سبحانه وتعالى أن يكون سعيهم شتى .. ولا يزالون مختلفين.

وحتى يتأبد عمل هذه السنة الإلهية، سنة التعددية فى كل عوالم الخلق - فى الإنسان .. والحيوان .. والنبات والجماد .. والأفكار .. والأجرام - دعا الإسلام إلى منهاج « التدافع »، بدلاً من « الصراع »، فى معالجة التناقضات التى تفرزها الحياة بين الفرقاء المتعددين .. ذلك أن الصراع يعنى أن يصرع طرف الطرف الآخر، فيخرجه من الساحة، وبذلك تنتفى التعددية،

---

(١) الحجرات : ١٣.

(٢) الروم : ٢٢.

(٣) المائدة : ٤٨.

وينفرد المنتصر بالميدان ﴿ صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾[1] .. بينما التدافع هو عبارة عن « حراك .. واستباق » يُعدِّل الخلل الفاحش بين الفرقاء المختلفين ، ليعيد العلاقة بينهم إلى مستوى التوازن الوسطى العادل .. وبذلك ينتفى سكون الموات بين الفرقاء المتعددين وتنجو التعددية من موات الصراع الذى يصرع به طرف غيره من الأطراف ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾[2]. ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾[3].

ولأن التعارف هو غاية التعددية .. ولأن الحوار هو سبيل هذا التعارف بين بنى الإنسان .. كان الحوار فريضة من فرائض الإسلام .. والذين يقرأون القرآن الكريم يدركون دوره ، ودور الحوارات المتعددة والمتنوعة المبثوثة فى سوره وآياته ، فى صياغة « الروح الحوارية » عند الإنسان المسلم ، تلك التى تجسدت فى علاقات الإسلام وأمته وحضارته مع الآخرين .

تلك هى حقيقة الموقف الإسلامى – كما أومن به – فى رؤية « الآخرين » .. وفى فريضة الحوار مع « الآخرين » .

---

(١) الحاقة: ٧-٨.

(٢) البقرة: ٢٥١.

(٣) فصلت: ٢٤.

ومع كل ذلك ، فتجربتى مع الحوارات الدينية - وخاصة مع ممثلى النصرانية الغربية - تجربة سلبية ، لا تبعث على رجاء آمال تذكر من وراء هذه الحوارات ، التى تقام لها الكثير من اللجان والمؤسسات وتعقد لها الكثير من المؤتمرات والندوات واللقاءات .. وينفق عليها الكثير من الأموال .

ذلك أن كل هذه الحوارات ، التى دارت وتدور بين علماء الإسلام ومفكريه وبين ممثلى كنائس النصرانية الغربية ، قد افتقدت ولا تزال مفتقدة ، لأول وأبسط وأهم شرط من شروط أى حوار من الحوارات ، وهو شرط الاعتراف المتبادل والقبول المشترك بين أطراف الحوار .. فالحوار إنما يدور بين « الذات » وبين « الآخر » ، ومن ثم بين « الآخر » وبين « الذات » ، ففيه « إرسال » وفيه « استقبال » على أمل التفاعل بين الطرفين .. فإذا دار الحوار - كما هو حاله الآن - بين طرف يعترف بالآخر ، وآخر لا يعترف بمن « يحاوره » ، كان حواراً مع « الذات » ، وليس مع «الآخر »، ووقف عند «الإرسال » دون «الاستقبال »، ومن ثم يكون شبيهاً - فى النتائج - بحوار الطرشان !!

إن الإسلام ، والمؤمنين به يعترفون باليهودية والنصرانية كديانات سماوية ، أو رسالات وشرائع فى الدين الإلهى الواحد ، ويؤمنون بصدق جميع أنبيائها ورسلها ، عليهم الصلاة والسلام ، ويرون فى أصول كتبها وحياً إلهياً أنزله الله على هؤلاء الرسل والأنبياء ، ويتعبدون ربهم بالصلاة والسلام على موسى وأمه ، وعيسى وأمه ، وسائر الأنبياء والمرسلين فى

بنى إسرائيل .. ويرون فى شرائع تلك الرسالات ، التى لم ينسخها التطور جزءاً من الشريعة الإسلامية الخاتمة ..

فهم – المسلمون – يعترفون بالآخرين ، اعترافاً تقضى به العقيدة الدينية وسنة التعددية ، ويضعون اختلافاتهم معهم فى إطار هذه السنة ، سنة التعددية فى الشرائع الدينية السماوية .

بل لقد أدخل المسلمون – بعد الفتوحات الإسلامية – العديد من الديانات « الوضعية » – فى فارس والهند والصين – ضمن الديانات الكتابية ، وقال بعض الفقهاء : لقد كانت لهذه الديانات كتب أتى عليها الضياع ! فاعترفوا – « دينياً » .. وليس فقط « واقعياً » – بهذا الآخر الدينى .. وطبقوا على أممها وشعوبها قاعدة « **لهم ما لنا وعليهم ما علينا** » .. التى سنها رسول الإسلام ﷺ ، منطلقين من سننه الأخرى التى دعا فيها أمته إلى أن يسنوا فى التعامل مع أهل هذه « الديانات » سنة التعامل مع أهل التوراة وأهل الإنجيل .

هذا هو الموقف الإسلامى ، الذى يعترف بالآخر الدينى ، ويؤمن بكل النبوات والرسالات السابقة ﴿ **لا نفرّق بين أحد من رسله** ﴾[1]. – والأنبياء إخوة لعلاّت – أمهاتهم شتى ودينهم واحد »[2].

---

(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد .

والمسلم ، يرى إسلامه الامتداد المكمل لدين الله الواحد ، والميراث الجامع لكل الشرائع والرسالات .. ومع أنه هو « **الكافى به فَقْد ما سواه** » ، فلقد أقر كل صاحب دين على دينه ، معتبراً التعددية فى الشرائع والاختلاف فى الملل سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل . وحساب المخالفين إنما هو لله ، سبحانه وتعالى ، يوم الدين .. ولا ينقص هذا الاختلاف أحداً من أطرافه حظاً من حظوظه فى هذه الحياة الدنيا .

لكن موقف الآخرين من الإسلام والمسلمين هو موقف الإنكار ، وعدم الاعتراف أو القبول .. فالإسلام فى عرفهم دين سماوى ، ولا رسوله صادق فى رسالته ، ولا كتابه وحى من السماء .. حتى لتصل المفارقة ، فى عالم الإسلام إلى حيث تعترف الأكثرية المسلمة بالأقليات غير المسلمة ، على حين لا تعترف الأقليات بالأغلبية !

فكيف يكون .. وكيف يثمر حوار دينى بين طرفين ، أحدهما يعترف بالآخر ويقبل به طرفاً فى إطار الدين السماوى ، بينما الطرف الآخر يصنفنا كمجرد « واقع » ، وليس كدين ، بالمعنى السماوى لمصطلح الدين ؟ !

ذلك هو الشرط الأول والضرورى المفقود ، وذلك هو السر فى عقم كل الحوارات الدينية التى تمت وتتم ، رغم ما بذل ويبذل فيها من جهود ، وأنفق وينفق عليها من أموال ، ورصد ويرصد لها من إمكانات !

أما السبب الثانى لعزوفى عن المشاركة فى الحوارات الدينية - التى أدعى إليها - فهو معرفتى بالمقاصد الحقيقية للآخرين من وراء الحوار الدينى مع المسلمين .. فهم يريدون التعرّف على الإسلام ، وهذا حقهم ، إن لم يكن واجبهم .. لكن ، لا ليتعايشوا معه - وفقاً لسنة التعددية فى الملل والشرائع - وإنما ليحذفوه ويطووا صفحته بتنصير المسلمين !

وهم لا يريدون الحوار مع المسلمين بحثاً عن القواسم المشتركة حول القضايا الحياتية التى يمكن الاتفاق على حلول إيمانية لمشكلاتها .. وإنما ليكرسوا - أو على الأقل يصمتوا - عن المظالم التى يكتوى المسلمون بنارها ، والتى صنعتها وتصنعها الدوائر الاستعمارية ، التى كثيراً ما استخدمت هذا الآخر الدينى فى فرض هذه المظالم وتكريسها فى عالم الإسلام .

فحرمان كثير من الشعوب الإسلامية من حقها الفطرى والطبيعى فى تقرير المصير .. واغتصاب الأرض والسيادة ، فى القدس وفلسطين .. والبوسنة والهرسك .. وكوسوفا والسنجق وكشمير .. والفلبين .... إلخ .... إلخ .. كلها أمور مسكوت عنها فى مؤتمرات الحوار الدينى .

بل إن وثائق مؤتمرات التدبير لتنصير المسلمين ، التى تتسابق فى ميادينها كل الكنائس الغربية ، تعترف هذه الوثائق بأن الحوار الدينى - بالنسبة لهم - لا يعنى التخلى عن « الجهود القسرية والواعية والمتعددة والتكتيكية لجذب الناس من

مجتمع دينى ما إلى الآخر ، بل ربما كان الحوار مرحلة من مراحل التنصير !

وإذا كانت النصرانية الغربية تتوزعها كنيستان كبريان ، الكاثوليكية . والبروتستانتية الإنجيلية فإن فاتيكان الكاثوليكية - الذى أقام مؤسسات للحوار مع المسلمين ، ودعا إلى كثير من مؤتمرات هذا الحوار ، هو الذى رفع شعار « أفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠م » فلما أزف الموعد ، ولم يتحقق الوعد ، مدّ أجل هذا « الطمع » إلى سنة ٢٠٢٥م !! .

وهو الذى عقد مع الكيان الصهيونى « المغتصب للقدس وفلسطين » معاهدة فى ١٩٩٣/١٢/٣٠م - تحدثت عن العلاقة الفريدة بين الكاثوليكية وبين الشعب اليهودى ، واعترفت بالأمر الواقع للاغتصاب ، وأخذت كنائسها فى القدس المحتلة تسجل نفسها وفقاً للقانون الإسرائيلى الذى ضم المدينة إلى إسرائيل سنة ١٩٦٧م !! .

بل لقد ألزمت هذه المعاهدة كل الكنائس الكاثوليكية بما جاء فيها .. أى أنها دعت وتدعو كل الملتزمين بسلطة الفاتيكان الدينية - حتى ولو كانوا مواطنين فى وطن العروبة وعالم الإسلام - إلى خيانة قضاياهم الوطنية والقومية !

وباسم هذه الكاثوليكية أعلن بابا الفاتيكان أن القدس هى الوطن الروحى لليهودية ، وشعار الدولة اليهودية بل وطلب الغفران من اليهود .. وذلك بعد أن ظلت كنيسته قروناً متطاولة تبيع صكوك الغفران !

أما الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية الغربية فإنها هى التى فكرت ودبرت وقررت ، فى وثائق مؤتمر كولورادوا سنة ١٩٧٨م .

« إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية .. وإن النظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً .. إنه حركة دينية معادية للنصرانية ، مخططة تخطيطاً يفوق قدرة البشر .. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز .. تؤسس حول العالم ، بواسطة النصارى للتركيز على الإسلام ، ليس فقط لخلق فهم أفضل للإسلام ، وللتعامل النصرانى مع الإسلام ، وإنما لتوصيل ذلك الفهم إلى المنصرين من أجل اختراق الإسلام فى صدق ودهاء » !!

ولقد سلك هذا المخطط فى سبيل تحقيق الاختراق للإسلام ، وتنصير المسلمين - كل السبل اللاأخلاقية - التى لا تليق بأهل أى دين من الأديان - فتحدثت مقررات هذا المؤتمر عن العمل على اجتذاب الكنائس الشرقية الوطنية إلى

خيانة شعوبها ، والضلوع فى مخطط اختراق الإسلام والثقافة الإسلامية للشعوب التى هى جزء وطنى أصيل فيها .. فقالت وثائق هذه المقررات :

« لقد وطدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة فى العالم الإسلامى .. إن النصارى البروتستانت ، فى الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا منهمكون بصورة عميقة ومؤثرة فى عملية تنصير المسلمين .

ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها ، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم ، وعلى المواطنين النصارى فى البلدان الإسلامية ، وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معاً ، بروح تامة ، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين » !!

فهم يريدون تحويل الأقليات الدينية فى بلادنا إلى شركاء فى هذا النشاط التنصيرى المعادى لشعوبهم وأمتهم !!

كذلك قررت « بروتوكولات » هذا المؤتمر تدريب وتوظيف العمالة المدنية الأجنبية التى تعمل فى البلاد الإسلامية لمحاربة الإسلام وتنصير المسلمين وفى ذلك قالوا :

« إنه على الرغم من وجود منصرين بروتستانت ، من أمريكا الشمالية فى الخارج أكثر من أى وقت

مضى ، فإن عدد الأمريكيين الفنيين الذين يعيشون فيما وراء البحار يفوق عدد المنصرين بأكثر من ١٠٠ إلى ١ وهؤلاء يمكنهم أيضاً أن يعملوا مع المنصرين جنباً إلى جنب لتنصير العالم الإسلامى .. وخاصة فى البلاد التى تمنع حكوماتها التنصير العلنى » !!

كذلك دعت قرارات مؤتمر كولورادوا إلى التركيز على أبناء المسلمين الذين يدرسون أو يعملون فى البلاد الغربية ، مستغلين عزلتهم عن المناخ الإسلامى لتحويلهم إلى « مزارع ومشاتل للنصرانية » ، وذلك لإعادة غرسهم وغرس النصرانية فى بلادهم عندما يعودون إليها .. وعن ذلك قالوا :

« يتزايد باطراد عدد المسلمين الذين يسافرون إلى الغرب .. ولأنهم يفتقرون إلى الدعم التقليدى الذى توفره المجتمعات الإسلامية ، ويعيشون نمطاً من الحياة مختلفاً - فى ظل الثقافة العلمانية والمادية - فإن عقيدة الغالبية العظمى منهم تتعرض للتأثر.

وإذا كانت « تربة » المسلمين فى بلادهم هى بالنسبة للتنصير « أرضاً صلبة .. ووعرة » فإن بالإمكان إيجاد « مزارع » خصبة بين المسلمين المشتتين خارج بلادهم ، حيث يتم الزرع والسقى والتهيئة لعمل فعال عندما يعاد زرعهم ثانية فى تربة أوطانهم كمنصرين » !!.

بل إن بروتوكولات هذا المؤتمر التنصيرى لتبلغ قمة اللاأخلاقية عندما تقرر أن صناعة الكوارث فى العالم الإسلامى هى السبيل لإفقاد المسلمين توازنهم الذى يسهل عملية تحولهم عن الإسلام إلى النصرانية ! .. فتقول هذه البروتوكولات :

« لكى يكون هناك تحول إلى النصرانية ، فلابد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس أفراداً وجماعات ، خارج حالة التوازن التى اعتادوها .

وقد تأتى هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية ، كالفقر والمرض والكوارث والحروب ، وقد تكون معنوية كالتفرقة العنصرية ، أو الوضع الاجتماعى المتدنى .

وفى غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة ، فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية .. إن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح عملاً مهماً فى عملية التنصير !

وإن إحدى معجزات عصرنا ، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التى كانت تناهض العمل التنصيرى ، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى » !!

فهم - رغم مسوح رجال الدين - يسعون إلى صنع الكوارث فى بلادنا ليختل توازن المسلمين ، وذلك حتى يبيعوا إسلامهم لقاء مأوى أو كسرة خبز أو جرعة دواء ! .. وفيما حدث ويحدث لضحايا المجاعات والحروب الأهلية والتطهير العرقى - فى البلاد الإسلامية - التطبيق العملى لهذا الذى قررته البروتوكولات ..

فهل يمكن أن يكون هناك حوار حقيقى ومثمر مع هؤلاء ؟!

تلك بعض من الأسباب التى جعلتنى متحفظاً على دعوات ومؤتمرات وندوات الحوار بين الإسلام والنصرانية الغربية .. وهى أسباب دعمتها وأكدتها « تجارب حوارية » مارستها فى لقاء تم فى « قبرص » أواخر سبعينيات القرن العشرين .. ووجدت يومها أن الكنيسة الأمريكية - التى ترعى هذا الحوار وتنفق عليه - قد اتخذت من إحدى القلاع التى بناها الصليبيون إبان حروبهم ضد المسلمين « قاعدة » ومقراً لإدارة هذا الحوار ؟ !

ومؤتمر آخر للحوار حضرته فى عمّان - بإطار المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية - مع الكنيسة الكاثوليكية فى الثمانينيات - وفيه حاولنا - عبثاً - انتزاع كلمة منهم تناصر قضايانا العادلة فى القدس وفلسطين .. فذهبت جهودنا أدراج الرياح ! .. على حين كانوا يدعوننا إلى « علمنة » العالم الإسلامى ، لطى صفحة الإسلام كمنهاج للحياة الدنيا ، تمهيداً لطى صفحته - بالتنصير - كمنهاج للحياة الأخرة ! .

ومنذ ذلك التاريخ عزمت على الإعراض عن حضور« مسارح » هذا الحوار !

لكننى عندما دعيت من « المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية » - والذى أشرف بعضويته - إلى لقاء « إسلامى - مسيحى» مع اتحاد الكنائس الإنجيلية فى ألمانيا -٢٩ذى القعدة- ٢ ذى الحجة سنة ١٤١٧هـ / ٧-٩ إبريل سنة ١٩٩٧م - بعمان - لم أتردد فى تلبية الدعوة ، لا لأنى قد غيرت رأيى فى مثل هذه اللقاءات وإنما لطبيعة الموضوع الذى كان محور هذا اللقاء .

فلقد كان الموضوع عن « الدين والعلمانية » .. فأحببت أن أسمع رأى الكنيسة الغربية فى تجربتها مع العلمانية التى صارعت المسيحية الغربية حتى صرعتها - وهى العلمانية التى صدرتها لنا أوروبا لتصنع مع إسلامنا ما صنعته مع النصرانية الغربية .

وزاد من حماسي لحضور هذا اللقاء ، تكليفى بالتعقيب على بحث من بحوث هذا اللقاء عن « عملية العلمنة والمسيحية الغربية » ، كتبه الدكتور « جوتفرايد كونزلن » وهو أستاذ فى اللاهوت الإنجيلى والأخلاقيات الاجتماعية بجامعة القوات المسلحة - فى ميونيخ - بألمانيا .. أى أنه قسيس وعالم اجتماع فى ذات الوقت .

وهو بحث فيه من نبرات الصدق ما يجعله شهادة إدانة للغرب وكنائسه وعملائه من المتغربين العلمانيين فى بلدانه الذين يعملون على أن تصنع هذه العلمانية بإسلامنا وإنساننا المسلم هذا الذى صنعته العلمانية بالنصرانية الغربية ، والإنسان الغربى .

لقد وجدت فى حضور هذا اللقاء فرصة استثنائية للحوار مع قس وعالم اجتماع ، حول قضية مشتركة هى هزيمة العلمانية للدين ، ثم عجزها عن القيام بالدور الذى يجب أن يقوم به الدين فى حياة الإنسان .. وكما سعدت ببحث الدكتور « كونزلن » وأثنيت على صدقه مع نفسه - وإن كان قد وقف عند نقد الذى حدث .. ولم يقدم صراحة مخرجاً من المأزق الذى

سقطت فيه أوروبا العلمانية - فلقد سعد الرجل بنقدى لهذا الذى حدث ويحدث بأوروبا وكنائسها حول هذا الموضوع . رغم ما لامسه نقدى من نقاط حساسة ، يقابلها الكثيرون عادة - ولقد قابلوها - بتوتر قارب الاحتقان !

ولأن هذا الذى كتبه الدكتور « كونزلن » هو شهادة شاهد من أهلها .. ولأن تعليقى على شهادته هذه ، هو موقف لا علاقة له بالمداهنة والنفاق اللذين تطفح بهما أغلب منتديات الحوار الدينى .. فلقد آثرت أن أقدم جميع ذلك إلى الباحثين والقراء .

لقد قال الدكتور « كونزلن » - فى بحثه هذا عن العلمنة ، وعن صنيعها بالنصرانية .. وعن الثمرات المرة التى تعانى منها أوروبا اليوم .

لقد مثلت العلمنة : تراجع السلطة المسيحية .. وضياع أهميتها الدينية .. وتحول معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية .. والفصل النهائى بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية .. وسيادة مبدأ : دين بلا سياسة وسياسة بلا دين .

ولقد نبعت العلمانية من التنوير الغربى .. وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين ، وانتصاره عليه باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشرى ، يتلاشى باطراد فى مسار التطور الإنسانى .

ومن نتائج العلمانية : فقدان المسيحية لأهميتها فقداناً كاملاً .. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم .. بل وزوال أهميته أيضاً كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس ، وللحياة بشكل عام .. فسلطة الدولة ، وليست الحقيقة ، هى التى تصنع القانون .. وهى التى تمنح الحرية الدينية .

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينا حل محل الدين المسيحى ، يفهم الوجود بقوى دنيوية ، هى العقل والعلم .

لكن .. وبعد تلاشى المسيحية .. سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان ، التى كان الدين يقدم لها الإجابات .. فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين .. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها ، بل وتفكك أنساقها - العقلية والعلمية - عدمية ما بعد الحداثة .. فدخلت الثقافة العلمانية فى أزمة ، بعد أن أدخلت الدين المسيحى فى أزمة ، . فالإنهاك الذى أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلمانى الحديث .. وتحققت نبوءة نيتشة « ١٨٤٤ - ١٩٠٠ » عن « إفراز التطور الثقافى الغربى لأناس يفتقدون « نجمهم »

الذى فوقهم ، ويحيون حياة تافهة ، ذات بعد واحد ، لا يعرف الواحد منهم شيئا خارج نطاقه » .. وبعبارة « ماكس فيبر » « ١٨٦٤ - ١٩٢٠ » :« لقد أصبح هناك أخصائيون لاروح لهم ، وعلماء لا قلوب لهم »

ولأن الاهتمام الإنسانى بالدين لم يتلاش ، بل تزايد .. وفى ظل انحسار المسيحية ، انفتح باب أوروبا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة - من التنجيم إلى عبادة القوى الخفية .. والخارقة والاعتقاد بالأشباح .. وطقوس الهنود الحمر .. وروحانيات الديانات الآسيوية .. والإسلام ، الذى أخذ يحقق نجاحا متزايدا فى المجتمعات الغربية..

لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا .. ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلمانى على الإنسان الأوروبى ، عندما أصبح معبدها العلمى عتيقا » ..! .. ففقد الناس « النجم » الذى كانوا به يهتدون : وعد الخلاص المسيحى .. ثم وعد الخلاص العلمانى !

تلك بعض من عبارات الدكتور « كونزلين التى قدمها فى بحثه عن « عملية العلمنة والمسيحية الغربية » ولو أن الكنائس الغربية لم تخن نصرانيتها ، لركزت جهودها ضد العلمانية فى بلدها ، وعملت على إعادة تنصير أوروبا بدلا من هذه الحرب التى تشنها لتنصير المسلمين .

ولو أن هذه الكنائس ، أخلصت لمنظومة التدين - مطلق التدين وللقيم الإيمانية - مطلق القيم الإيمانية لسعدت بصمود الإسلام فى وجه العلمانية ، ونجاة المسلمين من هذا الذى أحدثته العلمانية بالإنسان الغربى والمجتمعات الغربية .. لكن الغريب والعجيب ، أن هذه الكنائس لم تصنع شيئا من ذلك ، وإنما صنعت العكس ، فزاد سعار حقدها على الإسلام ، لأنه قاوم ولا يزال يقاوم العلمانية ، محافظا على سلطان الدين والتدين فى قلوب المسلمين .. فكأن هذه الكنائس تريد أن تزرع فى الجسم الإسلامى ذات الجراثيم القاتلة التى قتلت تدين المجتمعات الغربية !

بل إن هذا الصمود الإسلامى - وفى ذلك مدعاة للغرابة والاستغراب - هو الذى جعل دوائر القرار الاستراتيجى فى الغرب ، تعلن - بعد انهيار المنظومة الشيوعية - أن الإسلام هو العدو الذى حل محل امبراطورية الشر الشيوعية .. لأنه - من بين كل الثقافات غير الغربية - المستعصى على العلمنة ، والذى يستيقظ ليقدم لأمته مشروعا للنهضة ملتزما بمعايير الدين وقيم الإيمان ..

وعن هذه الحقيقة ، تحدثت مجلة « شئون دولية » INTERANATIONAL AFFAIRS فقالت :

« لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتى .. وبالنسبة لهذا الغرض كان الإسلام جاهزاً فى المتناول ..فالإسلام رافض لأى تمييز بين ما لله وما لقيصر..

وهو لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين فى دولة علمانية .. إنه استثناء مدهش وتام جداً من النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع ، والتى تقول إن المجتمع الصناعى والعلمى الحديث يحل العلمنة محل الإيمان الدينى .. فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام ، وسيطرة هذا الدين على المؤمنين به هى سيطرة قوية ، بل إنها أقوى الآن مما كانت عليه من مائة سنة مضت .. إنه مقاوم للعلمنة ، فى ظل مختلف النظم السياسية - راديكالية .. وتقليدية .. وبين بين - وعمليات الإصلاح الذاتى تتم فى العالم الإسلامى ، باسم الإيمان الدينى ، وليس على أنقاض هذا الإيمان .. ولأن الإسلام هو الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍ فعلى وحقيقى للثقافة العلمانية الغربية ، كان - من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب - الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة » .

فرفض الإسلام والمسلمين للعلمنة - ومن ثم التبعية للنموذج الغربى - هو السبب الجوهرى لإعلان الغرب أن العدو الجديد - الذى حل محل الشيوعية - هو الإسلام ..

وهو السبب الذى جعل الحوارات الدينية - مع الكنائس الغربية - حوارات طرشان ! ... لأن هذه الكنائس ، بدلا من أن تتعلم من الإسلام كيفية الصمود ضد العلمانية ، نراها تستهدف - حتى من وراء حواراتها الدينية - ليس فقط العلمانية ، ليس فقط علمنة المسلمين - كما تريد الدوائر العلمانية الغربية - وإنما طى صفحة الإسلام من الوجود ! .

محتويات الكتاب

الجـذور التاريخية والجسور الحضارية

« مادة للحوار »

أ . د . محمد محمد أبو ليلة

